القصص القرآني

دروس وعبر

ⓒ دار طويق للنشر والتوزيع ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البصيلي، شعبان أحمد علي
القصص القرآني؛ دروس وعبر./ شعبان أحمد علي
البصيلي - الرياض، ١٤٢٩هـ
٢٢٧ ص؛ ٢٤ سم
ردمك: ٣-٦٨٥-٤٢-٩٩٦٠-٩٧٨
١- قصص القرآن أ. العنوان
ديوي ٢٢٩.٥ ١٤٢٩/٢٢٢٢

رقم الإيداع ١٤٢٩/٢٢٢٢
ردمك: ٣-٦٨٥-٤٢-٩٩٦٠-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار طويق للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٤٤٨ الرياض ١١٦٧٥
الإدارة العامة: ت/ ٩٢٠٠٢٢٢٢٩
ف/ ٠١/٢٧٨٥٦٢٨
المبيعات والمستودعات: ت/ ٠١/٢٧٠٢٧١٩
ف/ ٠١/٢٧٠٢٧٢١
بريد إلكتروني: dartwaiq@dartwaiq.com
موقعنا على الإنترنت: www.dartwaiq.com

تم الصف الإلكتروني
والإخراج والتصحيح
بدار طويق للنشر والتوزيع

المبيعات والتوزيع

الغربية

جدة: جوال: ٠٥٠٩٣٧٦٦١٨
تلفاكس: ٠٢/٦٥٢٣١٣٩
المدينة المنورة: جوال: ٠٥٠٤١٨٠٤٥٣
٠٥٥٦٧٢٢٥٠٥
مكة المكرمة والطائف: جوال: ٠٥٠٩١٨٣٩٨٩

القصيم وحائل

جوال: ٠٥٠٨٣٣٥٨١٧ تلفاكس: ٠٦/٣٢٦٥٧١١

الشرقية والشمالية

جوال: ٠٥٥١٩٥٠٦٨٩ تلفاكس: ٠٣/٨٢٥٣٥٨٧

الجنوبية

جوال: ٠٥٠٩٩٥٥٢٩١ تلفاكس: ٠٧/٢٢٤٥٥٤٢

القصص القرآني

دروس وعبر

تأليف

شعبان أحمد علي البصيلي

دار طويق
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم
إنه من سليمان وإنه

بين يدي القصص القرآني

إن الحمد لله نحمده سبحانه وتعالى ونستهديه ونسترضيه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا.

وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة والنعمة المزداة، نبينا وحبيبنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد،،،

فإن للقرآن لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وهو كلام الله المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من العزيز الحكيم، وإنه يعلو ولا يعلى عليه،،

ضرب الله فيه الأمثال، وقص فيه القصص والأخبار ليثبت به فؤاد النبي ﷺ، ويعلم الأمة دروساً في السير على خطى المرسلين، وتجنب طريق الظالمين الهالكين، ومن أهم هذه الدروس والعظات:

١- قدرة المولى ﷻ في إحياء الموتى ليدرك العباد أنه سبحانه وتعالى ما خلقهم عبثاً بل إنهم سيرجعون إليه ويجازيهم على ما عملوا، فلقد أحيا سبحانه وتعالى المقتول في قصة بقرة بني إسرائيل، وأحيا الملأ الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، وأحيا العزير وغيره فسبحان من يحيي العظام وهى رميم.

٢- أن سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه لا تتغير ولا تتبدل: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ

وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الإسراء:١٥]، فمن أخذ بالأسباب واستعان بالله نصره وأعانه كما نصر طالوت وهيئ الأسباب لذي القرنين.

٣- خطورة الحقد والحسد وأثرهما المدمر على الأفراد والمجتمعات فلقد قتل قابيل هابيل بسبب الحسد فمن شؤم معصيته أنه ما من نفس تقتل إلا تحمل قابيل نصيباً من الإثم، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها ذلك بأنه أول من سن القتل**»[1].

٤- أن للظالمين نهاية محتومة وأن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته فلقد مسخ الظالمين من أصحاب السبت وجعلهم قردة خاسئين، وأهلك فرعون وهامان وجنودهما، أما قارون فقد خسف به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين، وكذلك أهلك الله أصحاب الفيل وجعلهم عبرة للمعتبرين.

٥- أن بالشكر تدوم النعم وبالكفر تزول فأين جنة الكافر في سورة الكهف، وأين حدائق وعيون أهل سبأ، وأين ثمار أصحاب الجنة في سورة القلم، ألم تُزال هذه النعم بكفر أصحابها؟

٦- أهمية الدعوة إلى الله ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقديم التضحيات من أجل نصرة هذا الدين وعدم الخوف إلا من الله العلي الكريم فهذا لقمان الحكيم، وهذا مؤمن آل فرعون، وهذا الشاب في قصة أصحاب الأخدود هؤلاء جميعاً، كانوا دعاة إلى التوحيد

١- رواه البخاري برقم (٦٨٦٧).

فأين دورك أيها الحليم الرشيد؟

٧- المسارعة والمبادرة بالتوبة إلى الله ﷻ فهو غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، وسار على النهج القويم فلقد قبل سبحانه وتعالى توبة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك فالعاقل إذا ذكّر بالله تذكر، والمراوغ المنسلخ عن آيات الله ﷻ فإنه لا يرعوي عن ارتكاب المعاصي في جميع أحواله سواءً وعظه الواعظ أو زجره الزاجر.

٨- على المسلم أن يلجأ إلى ربه في جميع أحواله في السراء والضراء، وعليه أن يحتمي بسلطان الله ﷻ خاصة أيام المحن والشدائد، لذا لجأت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى ربها ففرج عنها وانزل براءتها، وفتية الكهف لما فروا بدينهم ولجأوا إلى الغار وسع الله صدورهم بإيمان فكان الغار على ضيقه أوسع من قصور ونعيم الكافرين.

٩- أن فوق كل ذي علم عليم وأن على الفرد أن يسلك سبيل التعليم إلى أن يلقى ربه ﷻ ، فهذا موسى كليم الله عزم أن يتعلم من الخضر، ولو كلفه ذلك أن يبحث عنه سنين عديدة حتى يلقاه، وعلى المتعلم كذلك أن يسمع ويطيع من معلمه ولا يتعجل بل يصبر وسينال مبتغاه إن شاء الله.

ولعل من أهم ما يلاحظه الدارس للقصص القرآني يتمثل فيما يلي:

١- معظم القصص القرآني ذكر في المرحلة المكية قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

٢- أول قصة نزلت في القرآن الكريم ـ قصة أصحاب الجنة ـ في سورة القلم.

٣- تكرار القصص القرآني في أكثر من سورة ليس معناه نقل الحديث السابق دون جديد وإنما هي صورة مكملة لما قبلها، وملمحاً آخر للقصة القرآنية فعلى سبيل المثال ذكر الله ﷻ قصة ـ

أصحاب السبت ـ في سورة البقرة بصورة إجمالية قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة:٦٥]، فعندئذ يسأل المرء من هم الذين اعتدوا في السبت فيأتي شرح ذلك في سورة الأعراف: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[الأعراف:١٦٣].

أما سورة يوسف فقد ذكرت فيها القصة كاملة من بدايتها إلى نهايتها دون قطع لها أو تكرار في سورة أخرى لأنها عبارة من رؤيا وتفسير لها فمن تمام النعمة تفسير الرؤيا دون انقطاع حتى تكمل الصورة في نهايتها لأن قصه نبي الله يوسف عليه السلام تجربة حياة من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة وانتهاء الأجل.

٤- الهدف من القصص القرآني معرفة أحوال الأمم السابقة وأخذ العبرة من حياتهم لأن حياة البشرية تتفق في الصراع بين الحق والباطل فعلى العاقل أن يسلك سبيل المؤمنين.

٥- لا يركز القصص القرآني على الزمان والمكان في القصص القرآني بينما يركز على العبرة والعظة المستفادة ليعتبر المؤمنون من الأمم السابقة، ولعل عدم ذكر الزمان لأن تاريخ البشرية يتشابه في استمرار الصراع بين الكفر والإيمان من بدء الخلق إلى نهاية البشرية، أما عدم ذكر المكان فلعل الحكمة من ذلك أن هذه الأماكن لو علمت لعبدت من دون الله فمن يدري لو حدد العلماء مكان أصحاب الكهف لوجدنا من يبيح تصويرهم ونشرها وفي ذلك ضرر كبير لهؤلاء الصالحين الذين كرمهم الله أحياءً وأمواتا ولو علم البشر مكان يأجوج ومأجوج لخرج علينا من يريد أن يحفر عليهم يريد أن يطلع عليهم وقد يتسبب في

تعجيل الشر للعالم.

٦- يجد الباحث في القصص القرآني أن الكثير من كتب التفسير مليئة بالإسرائيليات حيث اتخذ علماء التفسير من قول النبي ﷺ : «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» رخصة في ذلك، لذا يجب على الباحث أن يكون حذراً فيما ينقله ولا ينقل إلا الموثوق الذي يوافق الشرع عندنا يقول: «صاحب الدخيل في التفسير».

ومن ذلك نخلص أن ما جاء عن أهل الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- **موافق لما عندنا:** وهذا يكون صادقاً ولا يعد من الدخيل وتجوز روايته.

٢- **مخالف لما عندنا:** فيكون دخيلاً كاذباً، ولا تجوز روايته إلا مقروناً ببيان كذبه وبطلانه تحذيراً منه.

٣- **متوقف فيه فلا يحكم عليه بصدق أو كذب:** وهذا تجوز روايته لاحتمال صدقه وانطلاقاً من الإذن الوارد في قوله ﷺ : «**حدثوا عن بني إسرائيل**».

غير أن الذي نفهمه من قول النبي ﷺ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» أنه مجرد إباحة في التحدث عنهم، وهذا لا يعني أن نقرن الحديث عنهم بآيات القرآن الكريم فنفسرها أو نستأنس بذلك على فهم معين منها، فالحديث عنهم شيء وإقحام أحاديثهم التي لا نعلم صدقها - على تفسير الآية أو الآيات من القرآن شيء آخر، فهذا الفضول في ذكر الروايات من الإسرائيليات عند تفسير الآية يعطي القارئ انطباعاً أن تفسير تلك الآية هو ما تذكره هذه المرويات وقد تكون كاذبة، وهنا يقع الخطأ الجسيم بتفسير القرآن بما هو كذب في الحقيقة وواقع الأمر وتتوارث الأجيال ـ جيلاً بعد جيل ـ هذا التفسير المفتقد لدليل صحته معتقدين

أنه التفسير الحق لآيات الكتاب الحكيم، مما يشكل بعد ذلك عقبة في طريق ناقد تلك الروايات في إقناع من اشرأبت قلوبهم صدقها ـ يشكل عقبة ـ في إقناعهم بعد التعويل على ما جاء وأمثلة ذلك كثيرة متعددة مما هو سائد في أذهان الناس وعقولهم ومثال ذلك أن يوسف عليه السلام تزوج امرأة العزيز بعد محنته وهذا مثال كثير في كتب التفسير، وينقصه الدليل على صحته والمسئول عن وجود هذا الانطباع في أذهان الناس وعقولهم إقحام هذه المرويات على الآيات البينات، وقراءة الناس لها وسماعهم لها جيلاً بعد جيل.

وإلى هذا ذهب الشيخ ـ أحمد محمود شاكر رحمه الله تعالى ـ قال: «إن إباحة التحدث عنهم ـ فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه ـ شيء وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات أو تعيين ما لم يعين فيها أو تفصيل ما أجمل فيها شيء أخر، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا القول الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه وحاش لله ولكتابه من ذلك[1].

وكان عملي في هذا الكتاب على النحو التالي :

١- ذكر الآيات.

٢- توضيح معاني الكلمات.

٣- تفسير الآيات من مصادرها الأصلية وهى كتب التفسير وكتب التراث.

٤- الدروس المستفادة من كل قصة.

---

١ - الدخيل في التفسير ـ الجزء الأول ـ ص ٨٩٨٨.

٥- ترك أرقاماً فارغة ليكتب فيها القارئ الكريم ما لم يستوعبه عقلي ولم يخطه قلمي ليكون هناك تواصلاً بيننا مستفيداً من فكر إخواني في الله عازماً كتابة ما يصلني منهم في الطبعات القادمة بعون الله.

هذا، وقد أردت التركيز على القصص القرآني لا قصص الأنبياء، وإظهار جوانب الخير والشر في حياة الإنسان.

وكان هدفي بعد استخارة الله والتوكل على الله هو تبسيط القصص القرآني وجعله محبباً لقلوب الصغار والكبار

أسال الله العظيم رب العرش الكريم، أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين، وأن يهدى به الحائرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

للتواصل في مصر هاتف رقم ٠٠٢٠٨٦٧٥٣١٢٧٥

للتواصل في المملكة رقم ٠٩٦٦٠٥٠١٦٥٠١٦٠

شعبان أحمد علي البصيلي

الاثنين ١٦/٥/١٤٢٧هـ

الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

١- بقرة بني إسرائيل

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ۖ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٦٧-٧٣].

معاني الكلمات:

هزوا: مهزوا بنا.

الجاهلين: المستهزئين.

فارض: مسنة.

بكر: صغيرة.

عوان: أي بين الصغيرة والكبيرة.

فاقع: ناصع صاف.

تسر الناظرين: تعجبهم.

ما هي: يعني أهي سائمة أم عاملة.

لا ذلول: غير مذللة بالحرث.

الحرث: الأرض المهيأة للزراعة.

أصل القصة:

وجد قتيلاً في بني إسرائيل ولم يعرف قاتله، فذهب جماعة منهم إلى نبي الله موسى عليه السلام ليعرفوا منه القاتل، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن عليهم أن يذبحوا بقرة ويأخذوا جزءاً منها ويضربوا به المقتول وسينطق باسم القاتل، وكان على بني إسرائيل أن ينفذوا ما أمر به الله على لسان موسى عليه السلام غير أنهم من سوء أدبهم أخذوا يجادلونه في حوار لا فائدة منه فشددوا فشدد الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أي بقرة لتحقق المطلوب ولعرفوا القاتل.

التفسير:

تعددت أراء المفسرين عن القاتل والمقتول وصاحب البقرة على عدة أقوال كلها من

الإسرائيليات يقول الإمام ابن كثير في تفسيره ويجوز الأخذ من الإسرائيليات، وهى مما يجوز نقلها، ولكن دون تصديق أو تكذيب فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله اعلم[١].

١- روى ابن أبي حاتم بالسند المتصل إلى محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض فقال ذوو الرأي منهم علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى فذكروا ذلك له فقال إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك فقال هذا لإبن أخيه ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا ولم يورث قاتل بعد.

٢- وأخرج عبد الرزاق عن عبيدة قال أول ما قضي أنه لا يرث القاتل في صاحب بني إسرائيل.

٣- وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال أول ما منع القاتل الميراث كان صاحب البقرة.

١- تفسير ابن كثير ص٧٣.

رواية أخرى للقصة:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن شيخا من بني إسرائيل على عهد موسى كان مكثرا من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم وكان الشيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله وأنه لما تطاول عليهم أن لا يموت أتاهم الشيطان فقال هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم وتغرموا أهل المدينة التي لستم بها ديته وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا في أحداهما وكان القتيل إذ قتل فطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فأيهما كانت أقرب إليه غرمت الدية وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك عمدوا إليه فقتلوه ثم طرحوه على باب المدينة التي ليسوا بها فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم فوالله لتغرمن لنا ديته قال أهل المدينة نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا فعمدوا إلى موسى فجاءه جبريل فقال قل لهم إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فتضربوه ببعضها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لولا أن بني إسرائيل قالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون ما أعطوا أبدا ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم»**[1].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك، ولا يحتمل

---

١ - الدر المنثور (ج ا)، ص١٨٧-١٨٩.

الشركة بوجه من الوجوه، قصرّوا من غوايتهم، وانتبهوا من رقدتهم، وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم «قالوا الآن جئت بالحق»، أي: أوضحت لنا وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها.

فحصلوا على تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات «فذبحوها» وامتثلوا الأمر الذي كان يسراً فعسروه، وكان واسعاً فضيقوه «وما كادوا يفعلون» ما أمروا به لما وقع منهم من التثبيط والتعنت وعدم المبادرة فكان ذلك مظنة للاستبعاد ومحلاً للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبيط الكائن منهم، وقيل: أنهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، وقيل: لارتفاع ثمنها، وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول... والأول أرجح[1].

الدروس المستفادة من القصة:

١- سوء أدب اليهود مع ربهم جل وعلا وأنبيائهم سبب لما يصيبهم من المصائب والنكبات على مر العصور فمن سوء أدبهم أنهم قالوا لموسى ادع لنا ربك وكان عليهم أن يقولوا أدع لنا ربنا لأن الله ﷻ هو رب موسى وربهم، فكأنهم لا يؤمنون برب موسى، والدليل على جدالهم وسوء أدبهم أن هذه المحاورة بينهم وبين موسى عليه السلام لم تكن واقعة في لحظة واحدة بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنتة كانوا يتواطأون عليها ويدبرون الرأي بينهم في أمرها ثم يوردونها[2]، ومن سوء أدبهم أيضاً أنهم قالوا لنبيهم: «أتتخذنا هزوا» وكأن النبي المعصوم يسخر ويستهزأ

---

١ - فتح القدير (١/ ٩٨).

٢ - فتح القدير للشوكاني (ج١)، ص٩٩.

ويقول القبيح وهذا من قلة الفهم وانحطاط التفكير.

وهم الذي يقولون أننا شعب الله المختار ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، وعندما نقارن حال اليهود مع نبيهم وحال أصحاب النبي محمد ﷺ فإننا نجد فرقاً كبيراً فيما أمر به الله فشعار المؤمنين دائما ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

٢- من شدد، شدد الله عليه فبني إسرائيل لو ذبحوا أي بقرة لكفتهم غير أنهم تعنتوا فشدد الله عليهم فأرهقوا أنفسهم واتعبوا نبيهم.

٣- المعجزات لا تأتي إلا على أيدي الأنبياء فالمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على أيدي الأنبياء فعصا موسى تشق البحر، وناقة صالح تخرج من الصخر والموتى يحيون بإذن الله على أيدي عيسى، وينشق القمر لمحمد فصلوات ربي وسلامه على أنبياء الله جميعاً فموسى عليه السلام طلب منهم أن يذبحوا أي بقرة فكان عليهم أن يستجيبوا لما طلب وقد ضرب لهم البحر من قبل بعصاه فأنجاهم من الذل والعار.

٤- حب الدنيا رأس كل بلاء وقد يؤدي إلى القتل وارتكاب ما حرم الله قال رسول الله ﷺ: **«لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تفتح عليكم فتنافسوها كما تنافسوها (أي من كان قبلكم) فتهلككم كما أهلكتهم»**.

٥- خطورة التواني عن تنفيذ أوامر الله، لأن التسويف يؤدي إلى تأخير التوبة، ومن يدري فقد يموت الإنسان قبل أن يتوب إلى الله فيخسر بذلك الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: **«بادروا بالأعمال فماذا تنتظرون»**.

٦- حتى لا يفكر الوارث في قتل وارثه فقد حرم الشرع الحنيف أن يرث القاتل المقتول وهذا رأي الفقهاء في هذه المسألة المهمة، وعلى القول بأنه إن قتله طلباً لميراثه لم يرث قاتل عمد من حينئذ قاله عبيدة السلماني قال ابن عباس ﷺ : قتل هذا الرجل عمه ليرثه قال ابن عطية: وبمثله جاء شرعنا[1].

٧- على العاقل أن يبادر ويلتزم بشرع الله وبما جاء عن رسول الله ﷺ ، وعدم التسويف فمن يدري فقد يموت الإنسان وهو مقيم على ما يغضب الله، ولقد حكى لي أحد الشباب أنه ما ندم في حياته ندمه على موعظة لم يقدمها لابن خالته المتوفى، يقول: لقد نويت زيارته لدعوته إلى طاعة الله وترك المخدرات ولكن كل يوم أقول لنفسي اليوم اذهب، غداً أذهب ومرت الأيام، وجاءني اتصال هاتفي، لقد مات ابن خالتك، لقد تناول جرعة زائدة من المخدرات فقتلته، فذهبت لدفنه ولكن بعد فوات الأوان، وأخشى وأن يحاسبني ربي على ذلك لماذا لم تذهب إليه وتنصحه لله.

١- تفسير القرطبي (ج١) ص٤٥٦.

٢- هاروت وماروت

قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

معاني الكلمات:

تتلوا: تروي.

الشياطين على ملك سليمان :أي: على عهد سليمان.

وما كفر سليمان: لم يعمل السحر لأنه كفر.

هاروت وماروت: هما ملكان أنزلا لتعليمه ابتلاء من الله للناس.

فتنة :ابتلاء واختبار.

فلا تكفر: بتعلمه، فإن تعلمه كفر.

المرء: الرجل ويقصد به هنا الزوج.

بإذن الله: بقضائه.

اشتراه: اختاره أو استبدله بكتاب الله.

خلاق: نصيب في الجنة.

شروا: باعوا.

لو كانوا يعلمون: حقيقة ما يصيرون إليه من العذاب ما تعلموه.

ولو أنهم: أي اليهود.

التفسير:

١-قال ابن كثير ـ رحمة الله ـ في تفسيره: «وقد روى في قصة هاروت وماروت جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وسياق القرآن إجمال القصة من غير بسط أو إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن».

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ أن في سبب نزولها قولين :

أحدهما: أن اليهود كانوا لا يسألون النبي عن شيء من التوراة إلا أجابهم فسألوه عن السحر وخاصموه به فنزلت هذه الآية قال به أبو العالية.

والثاني: أنه لما ذكر سليمان في القرآن قالت يهود المدينة ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً والله ما كان إلا ساحراً فنزلت هذه الآية، قال به ابن اسحاق.

وفي كيفية ما تلت الشياطين على ملك سليمان عدة أقوال :

أحدها: أنه لما خرج سليمان عن ملكه كتبت الشياطين السحر ودفنته في مصلاه فلما توفي استخرجوه وقالوا بهذا كان يملك الملك ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس وهو قول مقاتل.

والثاني: أن آصف بن براخيا كان يكتب ما يأمر به سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان استخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكذباً وأضافوه إلى سليمان رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثالث: أن الشياطين كتبت السحر بعد موت سليمان ثم أضافته إليه.

والرابع: أن الشياطين ابتدعت السحر فأخذه سليمان فدفنه تحت كرسيه لئلا يتعلمه الناس فلما قبض استخرجته فعلمته الناس وقالوا هذا علم سليمان.

والخامس: أن الشياطين كانت في عهد سليمان تسترق السمع فتسمع من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق وقال لا أسمع

أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه فلما مات سليمان جاء شيطان إلى نفر من بني إسرائيل فدلهم على تلك الكتب وقال إنما كان سليمان يضبط أمر الخلق بهذا ففشا في الناس أن سليمان كان ساحراً واتخذ بنو إسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها[1].

وأما الحكمة من إنزال الله لهاروت وماروت :

قال الطبري ـ رحمه الله ـ فإن التبس على ذي غباء ما قلنا، فقال :وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه ؟

أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟

قيل له: إن الله جل ثناؤه عرف عباده جميع ما أمرهم به، وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على ذلك لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، فالسحر مما قد نهى عباده من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علمه الملكين الذين سماهم في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنهما لأنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما «إنما نحن فتنة فلا تكفر» ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه وعن السحر فيمحص المؤمن بتركه التعليم منهما، ويخزي الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما ويكون الملكان بتعليم ذلك من علماه لك لله مطيعين ،إذا كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماه.

١- زاد المسير ج١ ص١٢٠.

وقد عبد من دون الله جماعة من أولياء الله، فلم يكن ذلك لهم ضائراً[١]، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عبد بعضهم والمعبود عنه ناه، فكذلك الملكان غير ضائرهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه وعظتهما له بقولهما «إنما نحن فتنة فلا تكفر» إذا كانا أيديا ما أمرا به بقيلهما ذلك[٢].

ومما يجب التحذير منه في هذه القصة ما رواه بعض المفسرين من أن الزهرة نزلت من السماء إلى الأرض في صورة امرأة حسناء فاعجب بها هاروت وماروت فراوداها عن نفسها فأبت عليهما على أن يشركا بالله فأبيا ذلك... ثم عرضت ثانية فراوداها ولكنها اشترطت أن يقتلا نفساً فأبيا ذلك، ثم عرضت ثالثة فراوداها فخيرتهما بين الشرك أو قتل النفس أو شرب الخمر فاختارا أقل ذلك وهو شرب الخمر، فشرباه فلعبت الخمر برأسيهما، فأشركا بالله وقتلا النفس، وزنيا بالمرأة، فلما صحوا من الخمر، ندما وأرادا العودة إلى السماء فلم يقدرا، فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا، ومسخت المرأة فكانت كوكب الزهرة.

هذه القصة مكذوبة وليس فيها حديث مرفوع متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ[٣].

١- ضار لهؤلاء الأولياء لأنهم لا يأمروا الناس أن يعبدوهم.

٢- روح المعاني للالوسي (١/ ٣٤٣) نقلاً من كتاب قصص القرآن.

٣- مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٨٤:٨٥).

الدروس المستفادة من القصة:

١- براءة نبي الله سليمان عليه السلام من تهمة السحر التي قذفه بها اليهود فمن العجيب أنه إلى الآن هناك مجموعة من اليهود تعيش في منطقة مرتفعة في جبال نابلس في فلسطين تسمى - يهود السامرة - لا يعترفون بنبوة سليمان عليه السلام ويعتبرونه ساحراً، ومن عظمة القرآن أن الله عز وجل جعله شاهداً على أعمال الأمم السابقة فبرأ سليمان عليه السلام وأظهر فساد عقيدة اليهود الذين قتلوا وقللوا من شأن كرامة أنبياء الله.

٢- كفر الشياطين وهم مردة الجن وأن من عوامل كفرهم أنهم يعلمون الناس السحر الذي يفسد العلاقات الإنسانية، ويدعون علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

٣- أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجزة ويفرقون بينها وبين غيرها ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه والله أعلم.

٤- أن السحر يتسبب في الترويع والتخويف للإنس، وإيقاع الشحناء وإلقاء العداوة والفرقة بين كل اثنين بينهما ارتباط كالزوجين وغيرهما.

٥- السحر أنواع: كسحر العطف والربط والتخييل والمحبة وغيرها.

٦- من تحصن بالأذكار الشرعية وأهمها أذكار «الصباح والمساء» لا يصيبه شيء - إن شاء الله تعالى -، ومن هذه الأذكار ما يلي:

(أ) قراءة سورة الفاتحة.

(ب) قراءة آية الكرسي.

(ج) قراءة آخر آيتين من سورة البقرة.

(د) قراءة سورة الإخلاص، والفلق والناس.

(هـ) «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» متفق عليه.

(و) سبحان الله وبحمده، مائة مرة. « رواه مسلم ٤/ ٢٠٧١»

(ز) بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. ثلاث مرات (صحيح الترمذي ٣/ ١٤١).

(ك) أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. (ثلاث مرات رواه مسلم ٤/ ٢٠٩٠).

(ش) قول: **«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»**.

٧- هناك أمور بسيطة ننساها على أهميتها منها الدعاء عند دخول البيت، والدعاء عند دخول الخلاء، والدعاء عند الأكل والشرب، والدعاء عند الجماع ،وغيرها.

٨- أكل تمرات عجوة على الريق قال النبي ﷺ : **«من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»**. (رواه أحمد في مسنده ٤/ ٢٠٢).

٩- السحر لا يصيب إلا بإذن الله قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- الساحر ليس له نصيب في رحمة الله يوم القيامة.

١١- التحذير من إتيان السحرة ففي الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**.

وقال ﷺ : **«من أتى عرافاً أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»**[1].

١- رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٣٩).

٣- حزقيل

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٤٣-٢٤٤].

معاني الكلمات :

تر: تعلم.

حذر الموت: هرباً منه.

ثم أحياهم: وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا حذر من قدر.

التفسير :

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ ذكر الله في سورة البقرة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع :

ثم بعثناكم من بعد موتكم.

قصة بقرة بني إسرائيل.

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها.

وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما[1].

وأخرج وكيع والفريابي وابن جرير وابن المنذر والحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون وقالوا نأتي أرضاً ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله موتوا فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾: قال: هم من أذرعات وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾: قال: مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم الله عقوبة منه ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليستوفوها ولو كانت آجال القوم جاءت ما بعثوا بعد موتهم.

وأخرج ابن جرير عن أشعث بن أسلم البصري قال: بينما عمر رضي الله عنه يصلي ويهوديان

١- تفسير ابن كثير ج١ ص١١٣.

خلفه قال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فلما انتعل عمر قال: أرأيت قول أحدكما لصاحبه أهو هو قالا إنا نجده في كتابنا قرنا من حديد يعطى ما يعطى حزقيل الذي أحيا الموتى بإذن الله، فقال عمر ما نجد في كتاب الله حزقيل ولا أحيا الموتى بإذن الله إلا عيسى، قال أما تجد في كتاب الله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤]، فقال عمر ﷺ : بلى، قال: وأما إحياء الموت فسنحدثك أن بني إسرائيل وقع عليهم الوباء فخرج منهم قوم حتى إذا كانوا على رأس ميل أماتهم الله فبنوا عليهم حائطاً حتى إذا بليت عظامهم بعث الله حزقيل فقام عليهم فقال ما شاء الله فبعثهم الله له فأنزل الله في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾[1].

وقد روى الإمام أحمد وصاحبا «الصحيح» من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ[2] لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا نزل بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، فحمد الله ثم انصرف»**[3].

قال صاحب أضواء البيان ـ رحمه الله ـ:

١- الدر المنثور ج١ من ص٧٤١: ٧٤٣.

٢- مكان.

٣- البداية والنهاية - المجلد الأول - ص٢٢٤.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾: المقصود من هذه الآية الكريمة تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، هانت عليه مبارزة الأقران، والتقدم في الميدان، وقد أشار تعالى، أن هذا هو مراده بالآية حيث اتبعها بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وصرح بما أشار إليه هنا في قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٦]، وهذه أعظم أية في التشجيع على القتال، لأنها تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه، ولو فرض نجاته منه فهو ميت عن قريب[١].

وقال صاحب ـ تفسير القرآن بالقرآن ـ.

أن المشروع لأهل البلد إذا نزل بهم الطاعون أن لا يخرجوا فراراً منه فينتشر في البلاد الأخرى بل يصبروا ويحتسبوا أجرهم عند الله تعالى ومن مات منهم مات شهيداً ومن كان خارجاً عن البلد فلا يدخل فيه حتى يرتفع البلاء[٢].

الدروس المستفادة:

١- لا يغني حذر من قدر.

٢- لن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ورزقها.

١- أضواء البيان ـ المجلد الأول ص ٢٦٠.

٢- تفسير القرآن بالقرآن ـ الجزء الأول ص ٣٣٦.

٣- فضل الله سبحانه وتعالى على عباده عظيم ومن أعظم أفضاله علينا أن منَّ علينا وجعلنا مسلمين لذا نحن مقصّرون في شكر هذه النعمة التي لا تعادلها نعمة قال تعالى في سورة النمل: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [النمل:٧٣].

٤- من تقاعس عن القتال بسبب الخوف من الموت لا يحسن الظن بربه لأن من مات شهيداً كان جزأه المغفرة والرضوان من الله ومن جلس في بيته وحان أجله جاءه ملك الموت ولو كان في برج عال لا يصل إليه أحد من البشر.

٥- قدرة العزيز القدير على إحياء الموتى.

٦- من السنة في حالة إصابة قرية أو مدينة بمرض الطاعون ـ عافانا الله جميعاً ـ فإنه في هذه الحالة ينبغي عدم دخولها، وقد أراد أمير المؤمنين ـ عمر بن الخطاب ـ ﷺ أن يزور بلاد الشام فقيل له فيها مرض الطاعون فلم يخرج فقيل له أتفر من قدر الله فقال: «أفر من قدر الله إلى قدر الله».

٧- ويستفاد أيضاً الفرار من الأمراض الفتاكة كالمجزوم قال ﷺ : «**فر من المجزوم فرارك من الأسد**».

٨- إذا كان الفرار من الأمراض أمر واجب فإن الفرار من المعاصي أوجب، وعلينا أن نفر أي: نسارع بالتوبة إلى الله، قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

٤- طالوت وجالوت

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

معاني الكلمات:

الملأ: الأشراف.

وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا: بسبيهم وقتلهم.

تولوا: أعرضوا عنه وجبنوا.

أنى: كيف.

ولم يؤت سعة من المال: يستعين بها على إقامة الملك.

اصطفاه: اختاره للملك.

بسطة: سعة وزيادة وفضلاً.

والله يؤتي ملكه من يشاء: إيتاءه، لا اعتراض عليه.

واسع: فضله.

عليم: بمن هو أهل له.

التابوت: الصندوق.

سكينة: طمأنينة.

لآية لكم: على ملكه.

فصل: انفصل وجاوز.

مبتليكم بنهر؛ مختبركم وممتحنكم به.

منه: من مائه.

مني: من أتباعي.

يطعمه: يذقه.

يظنون: يوقنون.

ملا قوا الله: بالبعث يوم القيامة.

كم: بمعنى كثيرٌ.

فئة: جماعة.

والله مع الصابرين: بالعون والنصر.

برزوا لجا لوت وجنوده: ظهروا لقتالهم وتصافوا.

أفرغ: اصبب، كما يفرغ الدلو.

ثبت أقدامنا: بتقوية قلوبنا على الجهاد.

وآتاه: أي: داود.

وعلمه مما يشاء: كصنعة الدروع، ومنطق الطير.

لفسدت الأرض: بغلبة المشركين، وقتل المسلمين، وتخريب المساجد.

التفسير:

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: كان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيم على التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم قتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، وكانوا لا يقاتلون أحداً إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة، والتابوت الذي كان في قديم الزمان وكان ذلك مورثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله أن يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم ولم تزل المرأة تدعو الله ﷻ أن يرزقها غلاماً، فسمع الله ووهبها غلاماً، فسمته شمويل ـ أي سمع الله دعائي ـ ومنهم من يقول شمعون وهو بمعناه، فأنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إلى توحيده[1].

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾: وهم الجماعة من بني إسرائيل من بعد موت موسى عليه السلام أي: إلى

١- مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤١١/ ٤١٢).

قصتهم وخبرهم إذ قالوا لنبي لهم هو شمويل ـ على الأرجح عند جمهور المفسرين ـ أبعث: أقم لنا ملكاً نقاتل معه في سبيل الله تنتظم به كلمتنا ونرجع إليه قال النبي عليه السلام لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾: وقد فعل بهم ذلك قوم جالوت.

فلما كتب الله عليهم القتال تولوا عنه وجبنوا إلا قليلاً منهم وهم الذين عبروا النهر «وهو نهر بين فلسطين والأردن» مع طالوت.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ ﴾: لأنه ليس من سبط المملكة وكان الملك في سبط يهوذا، ولم يكن طالوت منهم بل كان دباغاً أو راعياً وقيل غير ذلك فالله أعلم.

﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾: يستعين بها على إقامة الملك قال النبي لهم: إن الله اصطفاه اختاره للملك عليكم وزاده بسطة سعة في العلم والجسم وكان أعلم بني إسرائيل يومئذ وأجملهم وأتمهم خلقاً والله يؤتي ملكه من يشاء إيتاءه لا اعتراض عليه والله واسع فضله عليم بمن هو أهل له.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾: لما طلبوا منه آية على ملكه إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت الصندوق ـ كان فيه صور الأنبياء ـ أنزله على آدم واستمر إليهم فغلبهم العمالقة عليه وأخذوه وكانوا يستفتحون به على عدوهم ويقدمونه في القتال ويسكنون إليه كما قال تعالى فيه سكينة: طمأنينة لقلوبكم من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون وهي نعلا موسى وعصاه وعمامة هارون وقفيز من المن الذي كان ينزل عليهم ورضاض من

الألواح، وعند ابن كثير عصا موسى وعصا هارون، ولوحين، وقليل من المن الذي أنزله الله عليهم بعد نجاتهم من فرعون، فحملته الملائكة بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت فأقروا بملكه وتسارعوا إلى الجهاد فاختار من شبابهم سبعين ألفا.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ ﴾: بالجنود من بيت المقدس وكان الحر شديداً وطلبوا منه الماء قال: إن الله مبتليكم مختبركم بنهر ليظهر المطيع منكم والعاصي وهو بين الأردن وفلسطين فمن شرب منه أي من ماءه فليس مني أي من أتباعي ومن لم يطعمه (يذقه) فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فاكتفى بها ولم يزد عليها فإنه مني فشربوا منه لما وافوه بكثرة إلا قليلاً منهم فاقتصروا على الغرفة وقد روي أنها (الغرفة) كفتهم لشربهم ودوابهم وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه وهم الذين اقتصروا على الغرفة قالوا ـ أي الذين شربوا ـ لا طاقة قوة لنا اليوم بجالوت وجنوده أي بقتالهم وجبنوا ولم يجاوزوه، قال: الذين يظنون يوقنون أنهم ملاقو الله بالبعث وهم الذين جاوزوه كم من فئة :جماعة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله: بإرادته والله مع الصابرين بالعون والنصر

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾: أي ظهروا لقتالهم وتصافوا قالوا ربنا أفرغ أصبب علينا صبراً وثبت أقدامنا بتقوية قلوبنا على الجهاد وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم كسروهم بإذن الله: بإرادته وقتل داود وكان في عسكر طالوت جالوت وآتاه أي داود الله الملك في بني إسرائيل والحكمة النبوة بعد موت شمويل وطالوت ولم يجتمعا لأحد قبله وعلمه مما يشاء كصنعة الدروع ومنطق الطير ولولا دفع الله الناس بعضهم بدّل بعض من

الناس ببعض لفسدت الأرض بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب المساجد ولكن الله ذو فضل على العالمين[١].

قال صاحب ـ تفسير القرآن بالقرآن ـ:

ويفيد قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: إخباره تعالى أنه لولا دفعه للناس بعضهم عن بعض بالمعاهدات ونحوها فيما بينهم ونصرة للمسلمين مع قلتهم على المشركين مع كثرتهم كنصره لبني إسرائيل مع رسولهم وملكهم وقتل داود لجالوت وانهزام جنوده ونصره لرسوله محمد ﷺ وأصحابه في غزوة بدر مع قلتهم على المشركين على كثرتهم وغيرها من الغزوات الكثيرة في عهده وعهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: بهدم المساجد وإحراق المصاحف والكتب الإسلامية والقضاء على الإسلام والمسلمين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: في دفعه الناس بعضهم عن بعض بالصلح وغيره لأفنى الأقوياء الضعفاء، ودفاعه عن المؤمنين خاصة بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨]، ﴿تِلْكَ﴾: يا رسولنا، ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: من بيان العبادات وأحكام النكاح والطلاق وقصص بني إسرائيل ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾: الثابت والصدق الذي لا شك فيه ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: من جملتهم بل أنت أفضلهم وسيدهم وإمامهم وخاتمهم[٢].

١- تفسير الجلالين ج١ ص٥٥.

٢- تفسير القرآن بالقرآن - الجزء الأول ص٣٤٢.

قال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ.

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة ـ إن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته، لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود، فبهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة، وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عددها ما يراه الآخرون الذين قالوا: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف، إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: ثم اتجهت لربها تدعوه: «ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» وهى تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده، فطلبت منه النصر ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه، وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح.

وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون[1].

الدروس المستفادة:

١- طبائع اليهود تدل على الجدال والاعتراض مع أنبيائهم، وكان عليهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا.

١- الظلال (١/ ٢٦٣).

٢- من طبائع اليهود الخوف من العباد اكبر من خوفهم من رب العباد وهذا من فساد رأيهم قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر:١٣].

٣- ومن طبائعهم أيضاً الحرص على العيش وخوفهم من الموت قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

٤- الله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل والعباد يسألون.

٥- ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب، وما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال قال تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

٦- جبن اليهود عند القتال قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

٧- ما يحدث لليهود في فلسطين إنما هو استقواء بالخارج ولو أوقف الغرب دعمهم عن اليهود لزالت دولتهم وهي زائلة بإذن الله، فسر بقائهم كما قال الله تعالى:﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢].

٨- النصر يأتي مع الصبر.

٩- الإيمان بالله وحده هو المحرك لعزيمة البشر، وأن قوة السلاح وحدها لا تحقق النصر.

قد نتساءل: ما السبب في تأخير النصر في هذا الزمان الذي نعيش فيه الذل والهوان بكل صوره وألوانه حتى تكالب علينا أبناء القردة والخنازير على بلاد المسلمين من كل حدب وصوب.

والجواب على ذلك يكمن في عدة أشياء وهى التي تجعل النصر يتأخر ألا وهى :

١٠- إن النصر قد يبطئ لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً.

١١- وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وأخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالباً، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله.

١٢- وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة أخر قواها، فتدرك، أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها لله.

١٣- وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه.

١٤- وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء وهذه الصلة هي الضمانة الأولى

لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به.

١٥-وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ودعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها أو شجاعة أمام أعدائها والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله.

١٦- وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة، لم تنكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقي الباطل حتى ينكشف عارياً للناس ويذهب عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية[1].

١٧- أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها، فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة.

١٨- سمة اليهود الغالبة على تاريخهم نقض العهود وعدم إعطاء الناس حقوقهم إلا بقوة الطرف الآخر وإرغامهم على قبول الحق.

١٩- إن لم تتربى الأمة على نصرة الحق والعدل والحماس لدين الله، وتمتلك أسباب القوة فإنها تصبح هدفاً لأعدائها والطمع في خيراتها.

١- قصص القرآن ـ محمود المصري ـ نقلاً عن طريق الدعوة في ظلال القرآن ص ٣٥٩.

٥- قصة العزير

قال تعالى:

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩].

معاني الكلمات:

خاوية: خالية ليس فيها أحد.

على عروشها: ساقطة جدارنها على سقوفها، التي سقطت قبلها.

أنى: كيف.

يحي هذه الله بعد موتها: استعظاماً لقدرته تعالى.

بعثه: أحياه.

لبثت: مكثت.

لم يتسنه: لم يتغير مع طول الزمان.

آية: دلالة على البعث.

كيف ننشزها: كيف نحرك بعضها إلى بعض ونرفعها.

التفسير:

علاقة الآية الكريمة بما قبلها من الآيات:

هذه الآية المباركة لها علاقة بما قبلها وما بعدها فقبلها حوار بين إبراهيم عليه السلام مع النمرود الملك المتكبر المتجبر وكيف ادعى انه يحيي الموتى حين يأمر بإحضار شخص ويقول للحراس اقتلوه فيقتل، ثم يحضر آخر ويعفو عنه ويظن بذلك انه يحيي ويميت وهذا منتهى الغباء والانحطاط في التفكير، فقال له نبي الله إبراهيم عليه السلام إن كنت تدعي القدرة «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» فلم يستطع أن يأتي بجواب لأنه علم أن ذلك ليس في مقدور البشر، والآية لها علاقة بما بعدها في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بإذنه وحده لا شريك له وقد ساق الدليل على ذلك فأذن لإبراهيم أن يحضر أربعة من الطير ويذبحهن ويقطعهن ويخلط لحمهن وريشهن ثم يقوم بتوزيعهن على الجبال ثم ينادي عليهن فيأتين إليه بقدرة العزيز الحكيم القادر المقتدر.

التفسير:

القول المشهور في اسم المار على القرية أنه «العزير» وهذا قول ابن عباس وابن جرير وابن عساكر وعكرمة وقتادة وسليمان وبريدة والسدي وروى جماعة آخرين منهم وهب بن منبه أنه «أرمياء» وقال مجاهد هو رجل من بني إسرائيل والقول المشهور في اسم القرية أنها بيت المقدس بعد أن تم تدميرها على يد بختنصر وهذا بيان من كتب التفسير

بالمار واسم القرية:

م	اسم التفسير	الاسم	القرية
١	ابن كثير	عزير	بيت المقدس
٢	الجلالين	عزير	بيت المقدس
٣	الدر المنثور	عزير	بيت المقدس
٤	فتح القدير	عزير وقيل أرمياء وقيل حزقيل	بيت المقدس
٥	زاد المسير	عزير	بيت المقدس
٦	القرطبي	عزير	بيت المقدس

ولما مر عليها العزير وجدها خاوية على عروشها مهدمة البنيان ساقطة الأسقف والجدران ففكر وقال: هل يمكن لها أن تقوم لها قائمة بعد موت أهلها وخرابها، فجعله الله ﷻ أية على قدرته فآماته مائة عام، ثم بعثة وكما ورد في كتب التفسير أنه مات أول النهار وأحياه الله بعد مائة عام آخر النهار، وكان عمره وقت موته أربعين سنة، وكان عند موته معه حماره وطعامه، وشرابه وقيل من العنب أو التين، فلما أحياه الله ﷻ جعله ينظر إلى حماره وكيف أحياه الله بعد موته، ونظر إلى الطعام والشراب فوجده كما كان لم يتغير منه شيء، فقام وركب حماره ورجع إلى قومه وجدد لهم التوراة، فمن كفرهم قالوا العزير ابن الله لأن الله أحياه بعد موته، وكان عليهم أن يشكروا ربهم على نعمه عليهم، ولكنها طبائع اليهود، فهم يقابلون النعم بالجحود والكفر في أكثر حياتهم.

قال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لقول المولى ﷻ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾:

أية عظام؟ عظامه هو؟ لو كان الأمر كذلك كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هي التي تعرت من اللحم للفت هذا نظره عندما استيقظ، ووخز حسه كذلك، ولما كانت إجابته: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، لذلك نرجح أن الحمار هو الذي تعرت عظامه وتفسخت، ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسه البلى، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن، ليكون هذا التباين في المصائر والجميع في مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء والتي تتصرف مطلقة من كل قيد[1].

العبرة من القصة:

١- الله قادر على أحياء الموتى ولا يقدر على ذلك سواه قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦].

٢- كذب اليهود الذين قالوا أن عزيراً هو ابن الله لأنه قام بعد مئة عام وما علموا أن الذي أحياه هو الله سبحانه وتعالى ليبين للعباد أنه هو الذي يحيي ويميت.

٣- قضية البعث شغلت بال الكثير من البشر قديماً وحديثاً فهناك من ينكر البعث شعارهم

١- في ظلال القرآن (١/ ٣٠٠).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧]، وأيضا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، وجاء أبو جهل إلى النبي ﷺ ومعه عظام بالية وقال: أتزعم يا محمد أن ربك يحيي هذه بعد أن بليت؟ فقال له رسول الله ﷺ : «**نعم بل يبعثك ويدخلك النار**»، ولما جاء خباب بن الأرت إلى العاص بن وائل يطالبه بدين عليه وأغلظ عليه فقال العاص مالك؟ ما كنت هكذا فقال خباب إني كنت على دينك فأما اليوم فانا على دين الإسلام مفارق لدينك فقال العاص: أو لستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً، فقال خباب: بلى، قال: فأخرني حتى أقضيك، أي: يوم القيامة، وأراد بذلك الاستهزاء بما أعده الله لعباده في الجنة وأنه منكر لهذا الوعد من الرحمن، ونجد شعار الملاحدة الذي ينكرون وجود الخالق جل وعلا، وشعارهم لا إله، ولا بعث، ولا حساب.

٤- عقيدة المسلم أن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، وأن الله يبعثنا بعد الموت للحساب، ثم نكون في الحياة البرزخية، ثم نقوم للحساب يوم القيامة بين يدي الرحمن، ثم تكون جنة أو نار، وأن الله تعالى يقول لأهل الجنة خلود بلا موت، ولأهل النار خلود بلا موت.

٦- قصة قابيل وهابيل

قال تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٢٧-٣١].

معاني الكلمات:

واتل: أيها الرسول.

عليهم: على قومك.

نبأ: خبر.

لأقتلنك: لأن الله تقبل قربانك، ولم يتقبل قرباني.

تبوء بإثمي: ترجع بشر ،وهو أثم قتلي.

وإثمك: الذي ارتكبته من قبل.

فطوعت: أي فحسنت وزينت وسولت.

له نفسه قتل أخيه: بعد هذه الموعظة.

فأصبح: فصار.

من الخاسرين: في الدنيا والآخرة.

يبحث في الأرض: ينبش التراب بمنقاره ورجليه، ويثيره على غراب ميت حتى يدفنه.

من النادمين: على قتله.

التفسير :

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل وقابيل وكان قابيل صاحب زرع وكان هابيل صاحب ضرع وكان قابيل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه وقال هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى وأنهما قربا قرباناً إلى الله ﷻ أيهما أحق بالجارية وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما أتى مكة ينظر إليها قال الله ﷻ هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض قال اللهم لا قال إن لي بيتاً في مكة فأته فقال آدم للسماء احفظي ولدي بالأمانة فأبت وقال للأرض فأبت وقال للجبال فأبت فقال لقابيل فقال نعم تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك فلما انطلق آدم قربا قرباناً وكان قابيل يفخر

عليه فقال أنا أحق بها منك هي أختي وأنا أكبر منك وأنا وصي والدي فلما قربا قرب هابيل جذعة سمينة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال هابيل إنما يتقبل الله من المتقين.

يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ أن كبش هابيل رفع إلى الجنة فظل يرعى فيها حتى أنزله الله تعالى فداءً لإسماعيل عليه السلام [1].

رد شبهة لا دليل على صحتها:

وقال بعض العلماء أن هذين الرجلين ليس من صلب آدم وإنما هم من بني إسرائيل وهذا قول غير صحيح كما قال القرطبي في تفسيره، وصاحب زاد المسير، لأنهما لو كانا من بني إسرائيل لكانا يعرفان الدفن، ولما أنزل الله الغراب يعلم القاتل كيف يواري سوءة أخيه، وبذلك يتضح أن القاتل والمقتول من صلب آدم والله أعلم.

ويقول صاحب الدخيل في التفسير:

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة لم يتعرضا لبيان نوع قربان ولدي آدم فمن أين جاء الرواة بالقول أن أحدهما قرب حزمة سنبل، وأن الآخر قدم كبشاً من غنمه؟

لا مصدر لذلك إلا ما جاء في الإصحاح الرابع من سفر التكوين فقد جاء فيه: «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قابيل»، وقالت: «اقتنيت رجلاً من عند الرب، ثم عادت

١- تفسير ابن كثير ج٢ص:٤٢.

فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قابيل عاملاً في الأرض، وحدث من بعد أيام أن قابيل قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها...».

ومن ذلك نرى أن ما روي عن سعيد بن جبير وغيره إنما هو مما عند أهل الكتاب وغني عن البيان أن ما عندهم ليس بحجة إلا إذا ورد في شرعنا ما يؤيده[1].

الدروس المستفادة من القصة:

١- التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود ونقضهم المواثيق والعهود كظلم ابن آدم لأخيه.

٢- أن هم هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد ليس بجديد عليهم فقد قتلوا قبلك الأنبياء وقتل قابيل هابيل والشر قديم في هذه الحياة الدنيا لأن هذه الآيات لها علاقة بما قبلها من حقد اليهود وحسدهم للرسول ﷺ.

٣- تحريم الزواج من الأخت هو الفطرة السليمة التي فطر الله عباده عليها.

٤- ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب فقد كان هابيل أعقل من قابيل ولم يقابل الإساءة بالإساءة ولكن كان يحب العفو ولين الجانب، وبهذا لم يكن ضعيفاً ولكن كان يخشى الله ﷻ.

٥- ظلم الإنسان لنفسه فقد تحمل قابيل الأمانة من أبيه ولكنه لم يعطها حقها، فقد أوصاه آدم عليه السلام قبل سفره بالقيام على رعاية أهله وإخوانه غير أنه خان الأمانة وقتل أخيه.

١- الدخيل في التفسير ـ الجزء الأول ـ ١٦٥.

٦- إتباع الشهوات يؤدي إلى معصية الله ودخول النار فكم من رجل وقع في الحرام بسبب الشهوة المحرمة؟ وكم من امرأة خانت زوجها وسلكت طريق الحرام؟ كل ذلك بسبب الشهوة الحرام.

٧- النهي عن الحسد، قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا**».

٨- الحسد أنواع منها:

- بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها.
- تمني زوال النعمة الجديدة ولزوم الفقر أو المرض أو غير ذلك.
- حسد الغبطة وهو تمني أن يكون مثل المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة.

٩- يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أشياء:

- التعوذ بالله من شر الحاسد والتحصن والالتجاء إلى الله.
- تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله حفظه.
- الصبر على عدوه فإنه سينتصر عليه إن شاء الله فمن حكمة المولى ﷻ أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهماً دكاً.
- التوكل على الله فمن يتوكل على الله فهو حسبه.
- عدم الخوف إلا من الله ولا يملأ قلبه بالفكر في الحاسد ولا يخافه ولا يلتفت إليه.
- الإقبال على الله والإخلاص له والإنابة إليه.

- الإقبال على الله والإخلاص له والإنابة إليه.
- تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه لأن الذنوب تضعف العبد.
- الصدقة والإحسان ما أمكنه فإن لذلك أثراً عجيباً في دفع الشر ورفع البلاء.
- إطفاء نار الحاسد الباغي والمؤذي بالإحسان إليه وهذا من أصعب الأمور.
- تجريد التوحيد والترحل بالفكر إلى المسبب العزيز الحكيم[1].
- النهي عن البغي والإفساد في الأرض بالقتل وغيره وأن الله توعد الباغي بالعذاب الأليم في الدنيا الآخرة فما من باغ إلا أذله الله في الدنيا قبل الآخرة وانظر إلى قارون كيف خسف الله به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين.
- النهي عن الظلم فقد حرمه الله تعالى على نفسه وجعله بين عباده محرماً.
- أن قاتل النفس عامداً متعمداً جزاءه جهنم، وأن كل قتيل يقتل إلى يوم القيامة يكون لقابيل جزء من ذنبه لأنه أول من شرع القتل على ظهر الأرض.
- أن من تمام كرامة الإنسان دفنه بعد موته، وأن كرامة الإنسان تتساوى بعد موته كحياته فلا يجوز أن يترك للهوام والسباع تأكله بعد موته حتى وإن كان كافراً قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

١- قصص القرآن من ص٥٤: ٦٠ بتصرف.

- من أراد أن يخرج شيئاً لله فليخرج أطيب ما عنده لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تطيب الدراهم قبل أن تخرجها للفقراء والمحتاجين فلما سئلت عن ذلك قالت لأنها تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير.
- قصة قابيل وهابيل تمثل سمو النفس الإنسانية وانحطاطها، فالنفس تسمو بالطاعات فهي ترقق القلوب، والمعاصي تجعلها قاسية كالحجارة أو أشد قسوة فعلى العاقل أن يرقق قلبه بطاعة الرحمن سبحانه وتعالى.

٧- أصحاب السبت

قال تعالى :

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٢-١٦٦].

معاني الكلمات :

حاضرة: قريبة من البحر.

يعدون: يعتدون.

في السبت: بصيد السمك المأمورين بتركه فيه.

شرعاً: ظاهرة على الماء.

لا يسبتون: أي: سائر الأيام.

بما كانوا يفسقون: أي بسبب فسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قد احتالوا عن انتهاك محارم الله، بما تعاطوه من الأسباب الظاهرة التي معناها تعاطي الحرام بطريقة غير شرعية.

وإذ قالت أمة منهم: أي لم تصد ولم تنه لمن نهى.

لم تعظون: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم استحقوا العقوبة من الله.

معذرة إلى ربكم: أي: لئلا ننسب إلى تقصير من ترك النهي.

ولعلهم يتقون: عقوبة من الله، فيرجعون إليه تائبين.

نسوا: تركوا.

ذكروا: وعظوا.

الذين ظلموا: أي ارتكبوا المعصية.

بئيس: شديد.

عتوا: تكبروا.

عن: ترك.

ما نهوا عنه: الصيد يوم السبت.

خاسئين: صاغرين مهانين ذليلين.

التفسير:

قال: ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

في القرية خمسة أقوال :

أحدها: أنها إيلة رواه مرة عن ابن مسعود وأبو صالح عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد ابن جبير وقتادة والسدي.

والثاني: أنها مدين رواه عكرمة في رواية عن ابن عباس.

والثالث: أنها ساحل مدين روى عن قتادة.

والرابع: أنها طبرية: قاله الزهري.

والخامس: أنها قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا قال به ابن زيد.

والصحيح أنها إيله وموقعها الآن على ساحل البحر الأحمر في خليج العقبة وقد أقام اليهود مكانها الآن ميناء إيلات، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت وقد حرم الله على بني إسرائيل أن يعملوا في السبت شيئا وأن يتفرغوا فيه للعبادة، فكان من فتنتهم أن الحيتان كانت تخرج وتظهر أمامهم يوم السبت ثم تختفي باقي الأسبوع، لم يبق في البحر حوت فإذا كان يوم الأحد لزمن قاع البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾: فاشتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهراً إلى البحر فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج

بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك فقال لهم علماؤهم ويحكم إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم فقالوا إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه فقال الفقهاء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل.

فقال بعض الذين نهوهم لبعض: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم فقال بعضهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فلما أبوا قال المسلمون والله لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار وفتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً ولعنهم داود عليه السلام فجعل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطؤوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[1].

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق فرقة عصت وصادت وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾، يريدون الفرقة العاصية ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك فقالت الناهية

١- تفسير ابن كثير ج١ ص١٠٧.

موعظتنا معذرة إلى الله ولعلهم يتقون ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية وعاصية لقال تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، و قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي: الذين فعوا النهي ولم يتركوه، ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم العصاة المعتدون في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم والجار والمجرور متعلق بأخذنا، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه تمرداً وتكبراً، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ أي: أمرناهم أمراً كونياً لا أمراً قولياً أي: مسخناهم قردة قيل إنه سبحانه عذبهم أولاً بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم قردة وقيل إنه قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ تكرير لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ للتأكيد والتقرير وأن المسخ هو العذاب البئيس والخاسئ الصاغر الذليل.

واعلم أن ظاهر النظم القرآني هو أنه لم ينج من العذاب إلا الفرقة الناهية التى لم تعص لقوله: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فإن كانت الطوائف منهم ثلاثا كما تقدم فالطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر ويحتمل أنها لم تمسخ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة وهى صيد الحوت في يوم السبت ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد[1].

١- فتح القدير ج٢ ص٢٥٧.

وقيل أيضاً أن الطائفة التي لم تنه ولم تعص هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهي وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما أدري ما فعل بهم، وهو الظاهر من الآية وقال عكرمة: قلت لابن عباس لما قال ما أدري ما فعل بهم ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة[1].

ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

وأما الفئة الثالثة فقد سكت القرآن عنها ـ ربما تهويناً لشأنها وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب إذ أنها قعدت عن الإنكار الايجابي ووقفت عند حدود الإنكار السلبي فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب[2].

العبر والدروس المستفادة من القصة:

١- هناك علاقة وثيقة بين المعصية وضيق العيش، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤]، وقد يمتلك الإنسان مالاً كثيراً ولكن لا يملك السعادة لأنها لا تأتي إلا بطاعة الرحمن، ولكن من رزق الإيمان والرضا وضاق عليه رزقه فهذا من السعداء، الذين رزقوا التقوى فإن من تمامها الرضا بالقليل.

٢- للمعاصي أسباب كما أشار العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ حيث يقول أنها ترجع إلى:

١- تفسير القرطبي ج٧ ص٣٠٧.

٢ - في ظلال القرآن بتصرف.

أ- تعلق القلب بغير الله ويؤدي ذلك إلى الشرك.

ب- طاعة القوة الغضبية ويؤدي ذلك إلى العلم.

ج- طاعة القوة الشهوانية ويؤدي ذلك إلى الفواحش.

فغاية التعلق بغير الله شرك وأن يدعي معه إله آخر.

وغاية طاعة القوة الغضبية القتل.

وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا[1].

ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨].

٣- على العاقل أن يفكر في إصلاح نفسه، وأن يصلح تقصيره مع الله، وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ القائل: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم» فقد كان على اليهود أن يتوبوا عن الذنب حتى يرفع الله عنهم ضيق العيش.

٤- قصة المجتمع عندما يعصي الله فيصاب بالمحن والفقر وضياع المقدرات، ويصاب بالأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم فهذه أول قضية مسخ في التاريخ البشري ولن تكون الأخيرة فقد أخبر المعصوم ﷺ أن أمة الإسلام سيكون فيها

١- الفوائد لابن القيم ص١٣٨-١٣٩.

المسخ والخسف إذا شربت الخمور وأعلن بالزنا واتخذت القينات والمعازف وانتهكت محارم الله ﷻ .

٥- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو حماية للمجتمع من الانهيار فالفئة التي صرح القرآن الكريم بنجاتها كانت الفئة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، ولكن هناك فرق بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقضية تغيير المنكر لأن تغيير المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر فلا يجوز تغييره ويسند أمره إلى ولي أمر المسلمين.

٦- خطورة السلبية على المجتمعات فالسلبيون يتسببون في ضياع الحقوق وإلحاق الأذى والضرر بالآخرين وبأنفسهم لأنها لا يمكن أن تعيش في معزل عن الآخرين.

٧- الإعذار إلى الله ﷻ وهي مسالة مهمة لأنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وأن الله سيسألك ماذا قدمت لدين الله، فعلى العاقل أن ينصح لله فيما يدري، لعل الله يهدي بك رجلاً واحداً فيكون لك خيراً من الدنيا وما فيها، ولقد سمعت من أحد المغسلين يقول: كنت في سيارة الإسعاف مع جنازة وكان يجلس معي رجل آخر وكان يبكي بكاءً شديداً فقلت له يا أخي اصبر واحتسب، فالموت نهاية كل حي فقال والله لا أبكي على موته ولكن أبكي لتفريطي في نصحي له، فهذا ابن خالتي مات وهو يشرب المخدرات وكنت أعلم بما يفعل، ولكنني كل يوم أقول سأجلس معه غداً أو بعد غد لنصحه لله، ولكن للأسف جاء أمر الله ولم أكن له من الناصحين وأخشى أن يسألني ربي عنه يوم القيامة.

٨- يهلك المجتمع إذا انتهكت حرمات الله ولم يكن هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد يصاب العباد بالعذاب وفي المجتمع صلحاء، وذلك إذا سكتوا عن النصح لله ولذلك لما أراد الله ﷻ أن يهلك قرية من القرى الظالمة، قال جبريل يا رب إن فيها فلان الصالح فقال الله ﷻ به فأبدأ العذاب، لأنه كان يرى محارم الله تنتهك ولم يتمعر وجهه أي كان سلبياً لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن المنكر.

٩- خطورة التحايل على ما أمر به الله فأصحاب القرية تحايلوا على شرع الله الذي أمرهم بعدم الصيد يوم السبت فكانوا ينصبون شباكهم يوم الجمعة، ويخرجونها يوم الأحد لذا حذرنا الإسلام من الالتفاف على شرع الله، فأخبر النبي ﷺ أنه سيأتي زمان على أمته يستحلون ما حرم الله ومثال ذلك شرب الخمور ويسمونها المشروبات الروحية، وتحليل الربا بحجة الحفاظ على اقتصاد الأمة، وتسمية الموسيقى والغناء بغذاء الروح، ويسمون التبرج والسفور بالتمدن ومواكبة العصر، ويسمون الرشوة هدية، وهذه صور من البيوع المنهي عنها أردت أن أبينها لأنها تتشابه كثيراً على الناس:

١- البيوع المشتملة على الجهالة والغرر:

وهى بيع ما لا يعلم حصوله أو يقدر على تسليمه أو لا تعرف حقيقته من ذلك بيع حيوان شارد أو طائر في السماء أو بيع الحمل في بطن أو لبن في ضرع أو صوف على ظهر لما روى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ : «**نهى أن يباع صوف على ظهر أو لبن في ضرع**»

رواه ابن ماجة.

٢- البيوع المشتملة على الخديعة والتدليس:

كأن يكتم عيباً في المبيع كالمرض في الحيوان أو غور ماء البئر أو تصدع في الجدار أو كتمان الثمن الحقيقي كمثل سلعة ثمنها خمسون جنيهاً فيقول البائع ثمنها في السوق مائة جنيه.

٣- البيوع المنهي عنها بسبب الربا ومنها:

بيع العينة: وهى في حقيقتها قرض في صورة بيع لاستحلال الفضل.

ومن صورها أن يشتري سلعة بثمن مؤجل ثم يبيعها المشتري على البائع بثمن أقل حاضراً.

مثال يذهب زيد من الناس إلى عمرو من الناس ويقول له أريد أن أشتري منك ثلاجة بثمن مؤجل ويكتب معه عقد الشراء مثلاً بـ(١٠٠٠) جنيه ثم يقوم زيد ويبيع الثلاجة لعمرو بـ(٧٠٠) جنيه ويأخذ الثمن في يده وينصرف.

وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم**» رواه أحمد.

المحاقلة وصورتها: بيع الحب المشتد في سنبله بحب من جنسه والعلة في البيع عن المحاقلة الجهل بالتساوي وهو من الربا.

٤- البيوع التي يترتب عليها معصية:

ويدخل في ذلك بيع السلاح في وقت فتنة للعدو أو لمن يعرف أنه قاطع طريق أو لمن

اشتهر بالفساد والظلم ويدخل في ذلك بيع السلاح للذين يرهبون الناس ويخربون مقدرات الشعوب.

ويدخل فيه بيع العنب لمن يصنع الخمور، أو بيع دار لمن يضعها ناد للقمار أو الزنا قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

٥- تلقي الركبان:

ومعناه: الخروج من البلد التي يجلب إليها لشراء السلعة المجلوبة ممن قدم بها.

وهذا مشاهد في الأسواق الريفية حيث يخرج التجار ويستقبلون البائعين قبل دخولهم لشراء السلع منهم بأسعار أقل من السوق ودافعهم في ذلك الكسب الكثير

قال رسول الله ﷺ: «**لا تلقوا الجلب**». متفق عليه.

٦- البيع المنهي عنه بسبب حرمة الوقت:

كالبيع أو الشراء بعد الشروع في أذان الجمعة الثاني ممن تلزمه صلاة الجمعة، وهذا محرم أيضاً على من ينشغل بالبيع وتضيع عليه الصلاة المكتوبة.

٧- البيع المنهي عنه بسبب نجاسة المبيع أو تحريمه:

مثل: بيع الميتة أو الخنزير والأصنام.

قال النبي ﷺ: «**نهى الله عن بيع الميتة والخمر والأصنام**» متفق عليه[1].

١- العلوم الشرعية المقرر على طلبة المعاهد الفنية بالمملكة العربية السعودية ص١١-١٨ بتصرف شديد.

يقول صاحب ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ـ من هداية هذه الآيات:

أ- إذا أنعم الله على أمة نعمة ثم أعرضت عن شكرها تعرضت للبلاء أولاً ثم للعذاب ثانياً.

ب- جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد نجى الله تعالى الناهين عن المنكر وأهلك الذين باشروه ولم ينتهوا منه دون غيرهم.

ج- إطلاق لفظ السوء على المعصية مؤذن بأن المعصية مهما كانت صغيرة تحدث السوء عن نفس فاعلها[1].

١- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير المجلد الثاني ص٩٥.

٨- بلعام بن باعوراء

قال تعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦-١٧٧].

معاني الكلمات:

نبأ: خبر.

فانسلخ :خرج.

منها:كما تنسلخ الحية من جلدها.

فأتبعه الشيطان: فأدركه فصار قرينه.

لرفعناه:عن التدنس بقاذورات الدنيا بأن نوفقه للعمل.

أخلد إلى الأرض: إطمأن إليها ،وتقاعس، ولزمها، ومال إليها.

واتبع هواه: في دعائه إليها، فوضعناه.

فمثله: صفته.

إن تحمل: بالطرد والزجر.

أو تتركه يلهث: يخرج لسانه أي :لاهثاً ذليلاً في كل حال.

يتفكرون: يتدبرون فيها، فيؤمنون.

التفسير:

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

قال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام فأتى قوم بلعام إليه فقالوا له هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فأخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب وأدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم قالوا له مالنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب حماراً له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسبان جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه أتدري يا بلعام ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال: فهذا ما لا أملك هذا شيء قد غلب الله عليه قال: واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ،جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنا رجل منهم واحد

كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر دخلت امرأة من الكنعانيين فأعجب بها رجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها قال: أجل هي حرام عليك قال فوالله لا أطيعك في هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ماصنع فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فقتلهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة من النهار[1].

قال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

إنه مثل لكل من أتاه الله من علم الله، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان ولينتهي به المسخ في مرتبة الحيوان.

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟

إنه في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهد القرآن، ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها،

١- تفسير ابن كثير ج٢ص٢٦٧.

ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبدا، والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبدا.

والحياة البشرية ما تني[1] تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله فيها عدا الندرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى ولا يستذلهم الشيطان ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور في قصة وقعت في جيل من الزمان وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله كي لا ينسلخوا منها، ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً وأن لا يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدوه، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكده[2].

العبر والدروس المستفادة من القصة:

١- شؤم المعصية على العباد فقد كان بلعام مقرباً إلى ربه وكان مستجاب الدعوة، فلما كفر بنعمة الله وباع دينه بدنياه نزع منه العلم فهلك وكان من اتباع الشيطان، فمثله كإبليس الذي طرد من رحمة الله بسبب المعصية.

١- تفتر وتقصر فهو مثل متكرر حدوثه.

٢- في ظلال القرآن (ج ٣/ ١٣٩٨/ ١٣٩٩).

٢- اسم الله الأعظم من دعا الله به أجابه وقد اختص الله به بعض عباده ولقد أورد النبي ﷺ جملة من الأحاديث في تحديده وقال بعض العلماء أنها تدور حول اللفظ الجامع وهو «الله».

٣- الإنسان إن لم يتعظ بآيات الله فإنه يشبه الحيوانات التي لا تفهم قال تعالى عن هؤلاء ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

٤- من الناس من يبيع دينه بدنياه وهؤلاء خطرهم على الأمة عظيم.

٥- أن المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره الزاجر.

٦- **قال القتيبي**: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال[1] وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال إن وعظته ضل وإن تركته ضل فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣][2].

٧- العالم الذي لا يقول الحق ويفتي بما يملى عليه، فهو كالمنسلخ من آيات الله.

٨- أسوأ الناس الذي يضل بعد علم ويكفر بعد إيمان ويتنصل من دينه وأمته ويوالي أعداء

١- أي : التعب.

٢- فتح القدير ج٢ ص٢٦٥.

الإسلام وينبهر بكل ما لديهم من خير وشر ويريد لأمته أن تكون مثلهم، وأن تتمثل أخلاقهم.

٩- يقول صاحب ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ـ من هداية هذه الآيات:

أ- ترك القرآن الكريم بعدم تلاوته والتدبر فيه، وترك العمل به مفض بالعبد أن يكون هو صاحب المثل في هذه الآية، فأولاً يتمكن منه الشيطان فيصبح من الغواة، وثانياً يخلد إلى الأرض كما هو حال الكثيرين، فلا يكون لأحدهم هم إلا الدنيا، ثم يتبع هواه لا عقله ولا شرع الله، فإذا به صورة لكلب يلهث لا ينقطع حيرته واتباعه لغيره كالكلب سواء بسواء، وهذه حال من اعرضوا عن كتاب الله تعالى في هذه الآية فليتأملها العاقل.

ب- لا رفعة ولا سيادة ولا كمال إلا بالعمل بالقرآن فهي الآية الرافعة لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ [الأعراف:١٧٦]، أي: بالآيات التي انسلخ منها والعياذ بالله.

ج- الهداية بيد الله ألا فليطلبها من أرادها من الله بصدق القلب وإخلاص النية فإن الله تعالى لا يحرمه منها، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه.

٩- الثلاثة الذين خلفوا

قال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

معاني الكلمات:

على الثلاثة الذين خلفوا: عن التوبة عليهم.

حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت: أي: مع سعتها فلا يجدون مكاناً يطمئنون إليه.

وضاقت عليهم أنفسهم: قلوبهم للغم والوحشة بتأخير توبتهم، فلا يسعها سرور ولا أُنس.

وظنوا: أيقنوا.

ثم تاب عليهم: وفقهم للتوبة.

التفسير:

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي: وتاب على الثلاثة الذين خلفوا أي أخروا ولم

تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم.

وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ معناه: أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية وهى وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وما مصدرية أي: برحبها لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم والرحب الواسع يقال منزل رحب ورحيب ورحاب وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديباً لهم لينزجروا عن المعاصي ومعنى ضاقت عليهم أنفسهم أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة وعبر بالظن في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ عن العلم أي علموا أن لا ملجأ يلجأون إليه قط إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْ﴾ أي: رجع عليهم بالقبول والرحمة وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي: الكثير القبول لتوبة التائبين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن عساكر عن عكرمة نحوه وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن نافع في قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: نزلت في الثلاثة الذين خلفوا قيل لهم كونوا مع محمد وأصحابه وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: مع أبي بكر وعمر وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عساكر عن الضحاك في الآية قال مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال مع علي بن أبي طالب وأخرج ابن عساكر عن أبي جعفر قال مع الثلاثة الذين خلفوا[1].

وقد تحدث كعب بن مالك ﷺ عن توبته كما روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: «لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا[2] عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ[3] فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ[4] قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا

١- فتح القدير ج٢ ص٤١٤.

٢- تواثقنا: تعاهدنا وتبايعنا عليه.

٣- أشهر عند الناس بالفضيلة.

٤- الراحلة: الناقة التي يركب عليها.

بَعِيدًا وَمَفَازًا[١] وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَا[٢] لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ[٣] غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِم[٤] الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ قَالَ كَعْبٌ فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللهِ ﷻ وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَر[٥] فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَطَفِقْتُ[٦] أَغْدُو[٧] لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَادِيًا[٨] وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي[٩] حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ[١٠] الْغَزْوُ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا[١١] عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ

١- المفاز: الصحراء التي لا نبات فيها ولا ماء.

٢- الجلاء: الوضوح والظهور.

٣- أهبة: الأهبة هي الاستعداد.

٤- بوجههم: بمقصدهم.

٥- أصعر: اميل.

٦- طفقت: شرعت وبدأت.

٧- أغدو: أخرج أول النهار.

٨- غادياً: خارجاً للغزو.

٩- يتمادى بي: يستمر بي التسويف والكسل.

١٠- تفارط: تقدم الغزاة وسبقوا.

١١- مغموصاً: متهماً به.

مِنْ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ[1] وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ[2] فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ[3] بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ[4] الْمُنَافِقُونَ فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي[5] فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَصَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً[6] وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي وَاللهِ لَوْ

١- برداه: رداء يلبس فوق الثياب أو كساء مخطط.

٢- عطفيه: المراد اعجابه بنفسه ولباسه.

٣- يزول: يتحرك ولا يستقر على حالة.

٤- لمزه: اللمز هو الطعن في الآخرين.

٥- بثي: البث هو الحزن الشديد.

٦- بضعة: البضع ما بين الثلاث إلى التسع.

جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا[1] وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ[2] عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللهِ[3] وَاللهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ[4] رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ قَالَ فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي قَالَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ قَالُوا نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ قَالَ قُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ قَالَ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ قَالَ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي قَالَ وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ قَالَ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَقَالَ تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ[5] فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ

١- جدلاً: الجدل هو براعة وقوة في المنطق في الكلام.

٢- تجد: الحزن وقيل الغضب.

٣- عقبى الله: أي يعوضني خيراً.

٤- ثار: غضب.

٥- أجلدهم: أقواهم وأشجعهم.

وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ[1] جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ[2] بِاللهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ قَالَ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ قَالَ فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ فَتَيَامَمْتُ[3] بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا[4] بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنْ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ[5] الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ قَالَ فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ

١- تسورت: صعدت السور.

٢- أنشدك: نشده سأله واقسم عليه.

٣- فتيامت: يمم أي قصد وتوجه إلى.

٤- فسجرتها: أحرقتها.

٥- استلبث: أبطأ وتأخر.

فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ فَقَالَتْ إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَ وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا قَالَ فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ قَالَ فَقُلْتُ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ قَالَ فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا قَالَ ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ ﷻ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ[1] سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَرْتُ[2] سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ قَالَ فَآذَنَ[3] رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى[4] الْجَبَلَ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ[5] رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللهِ

١- رحبت: اتسعت.

٢- فخررت: خر أي سقط ووقع.

٣- فآذن: أعلم واخبر.

٤- أوفى: صعد وارتفع.

٥- أتأمم: اقصد.

عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ قَالَ فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَقَالَ لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ قَالَ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ قَالَ فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ[1] مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قَالَ فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي[2] الَّذِي بِخَيْبَرَ قَالَ وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ قَالَ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ[3] اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ بِهِ وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيَ قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ حَتَّى بَلَغَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قَالَ كَعْبٌ وَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ

١- أنخلع: اخرج منه واتصدق به.

٢- سهمي: السهم هو النصيب المقدر في الميراث والقسمة.

٣- أبلاه: أنعم عليه.

قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ وَقَالَ اللهُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٥-٩٦][1].

الدروس المستفادة:

أما الدروس المستفادة من هذه القصة فأهمها:

١- **الله يتوب على من تاب:** عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب أحب أن له وادياً آخر ولن يملأ فاه إلا التراب والله يتوب على من تاب**»[2].

٢- **على المسلم أن لا يقنط من رحمة الله:** فعن عن محمد بن قيس قاص عمر بن عبدالعزيز عن أبي صرمة عن أبي أيوب أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون يغفر لهم**»[3].

٣- **الله تعالى يفرح بتوبة عبده:** عن عمارة بن عمير عن الحارث بن سويد حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي ﷺ والآخر عن نفسه قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه

١- رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب حديث توبة كعب بن مالك، رقم الحديث (٤٩٧٣).

٢- رواه مسلم ـ كتاب الزكاة ـ رقم الحديث (١٧٣٨).

٣- رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ رقم الحديث (٤٩٣٤).

قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا قال أبو شهاب بيده فوق أنفه ثم قال: لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكةٌ ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتىٰ إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحتله عنده[1].

٤- على المسلم أن يرد غيبة أخيه فمعاذ بن جبل ﷺ عندما سمع من تكلم عن كعب بسوء قال لمن اغتابه: بئس ما قلت.

٥- فضيلة الصدق، فهو منجاة.

٦- الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فقد قبل النبي ﷺ ممن جاءه يعتذر وجعل أمر سرهم إلى الله.

٧- استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم ومقاطعتهم تحقيراً لهم وزجراً، وعلى المسلم أن يقدم الحب والولاء لله ولرسوله على ما سواهم، فكيف تفسر من يأتي عليه زائر يعلم أنه لا يقيم الصلاة فيقوم بخدمته وضيافته وعندما يؤذن المؤذن للصلاة لا يخرج للصلاة في المسجد لوجود صديقه في المنزل فلا هو خرج للصلاة أو دعى صديقه للصلاة كل ذلك من باب الحرج وتقديم حب الصديق على حب الله.

٨- استحباب البكاء على الذنوب والمعاصي فمن صفات عباد الرحمن أنهم إذا فعلوا فاحشة أو

١- رواه البخاري ـ كتاب الدعوات ـ رقم الحديث (٥٨٣٣).

ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله، فالبكاء على الذنب دليل على الندم والرجوع إلى الله.

٩- استحباب التبشير بالخير فقد بعث الله هذه الأمة مبشرة بالخير وليس منفرين من رحمة الله.

١٠-استحباب تهنئة من رزقه الله رزقاً ظاهراً، أو صرف عنه شراً ظاهراً، فتهنئة الزوج «بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير»، وتهنئة من رزق بمولود «بارك الله في المولود وشكرت الواهب» وهكذا.

١١-يقظة الضمير تحفظ توازن المجتمع.

١٢-يستحب لمن تاب بسبب من أسباب الخير أن يحافظ على ذلك السبب فهو أبلغ في تعظيم حرمات الله كما فعل ـ كعب بن مالك ـ والله أعلم[1].

١٣- أمرنا المولى أن نبادر بالتوبة ولا نقنط من رحمة الله وانظر إلى صدق الرعيل الأول مع الله وهذا نموذج آخر للتائبين.

فعن بريدة ﷺ : أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله: إني قد زنيت فطهرني، فرده الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: «أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً»؟ قالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم.

١- صحيح مسلم بشرح النووي المجلد التاسع ص١١٢-١١٥ رقم الحديث (٢٧٦٩).

قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله: إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لِمَ تَردُني؟ لعلك تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى، قال: **«فاذهبي حتى تلدي»**، قال: فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: **«اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»**، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا رسول الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بحفرة لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد ﷺ بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع النبي ﷺ وسلم سبه إياها، فقال: **«مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس[1] لغفر له»**[2] ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

١- مكس: الذي يأخذ الأموال بغير حق.

٢- رواه مسلم.

١٠- أصحاب الكهف

قال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٩-٢٢].

معاني الكلمات:

حسبت: ظننت.

أصحاب الكهف: الغار في الجبل.

الرقيم: الكتاب.

من: جملة.

آياتنا عجباً: أي: ليس أمر هم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السماوات والأرض وغيرهما أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

الفتية: جمع فتى، وهو الشاب الكامل.

إلى الكهف: خائفين على إيمانهم من قومهم الكفار.

هيئ: قدر.

رشداً: أي: اجعل عاقبتنا رشداً، أي: هداية.

أي: أنمناهم سنين كثيرة، آية رقم (١٠).

ثم أيقضنا هم من نومهم، آية رقم (١١).

لنعلم: علمَ مشاهدة.

الحزبين: الفريقين المختلفين في مدة لبثهم.

أحصى: ضبط.

أمداً: غاية.

بالحق: بالصدق.

وزدناهم هدى: وهذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص.

وربطنا على قلوبهم:صبرناهم على مخالفة قومهم.

لن ندعو من دونه إلهاً: لن نعبد غيره أبداً.

لقد قلنا إذاً شططاً: أي: قولاً ذا إفراط في الكفر، إن دعونا إلهاً غير الله فرضاً.

لولا: هلا.

عليهم: على عبادتهم.

بسلطان بين: بحجة ظاهرة.

فمن: لا أحد.

افترى على الله كذبا: بنسبة الشرك إليه تعالى.

إلا الله: غيره.

مرفقاً: ما ترتفقون به من غداء و عشاء.

تزاور: تميل.

ذات اليمن: ناحيته.

تقرضهم ذات الشمال: تتركهم وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم أبداً.

في فجوة منه: متسع من الكهف.

آيات الله: دلائل قدرته.

رقود: نيام.

ذراعيه: يديه.

بالوصيد: بفناء الكهف.

و لملئت منهم رعباً: منعهم الله بالرعب من دخول أحد عليهم، الرعب خوف يرعب الصدر، أي: يملؤه.

آية رقم (١٨): وكذلك أيقظناهم ليتساءلوا بينهم عن حلهم، ومدة لبثهم، قال قائل منهم: كم لبثتم نياماً أو بعضه، قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بدراهمكم الفضية إلى المدينة، فلينظر الطيب الحلال من الطعام فليأتكم برزق منه، وليترفق في خروجه وذهابه وشرائه وعودته، ولا يعلمن بكم أحداً.

التفسير:

سبب نزول سورة الكهف:

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ:

ذكر ابن اسحاق أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن معيط إلى أحبار اليهود وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت لهما أحبار يهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هي فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها فإن أخبركم عنها فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هي قال: فقال لهم رسول الله ﷺ : **«أخبركم بما سألتم عنه غداً»** ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه

جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح، قال ابن إسحاق فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «**لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً**»، فقال له جبريل: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]، فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده وذكر نبوة رسوله ﷺ ما أنكروا عليه من ذلك فقال الحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب[١].

وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذي القرنين وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم[٢].

من هم أصحاب الكهف:

أما أصحاب الكهف اختلف العلماء في بدو أمرهم وسبب مسيرهم إلى الكهف على

١- تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٤٧.

٢- تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٥.

ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام فمروا براع له فتبعهم على دينهم فأووا إلى الكهف يتعبدون ورجل منهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة إلى أن جاءهم يوما فأخبرهم أنهم قد ذكروا فبكوا وتعوذوا بالله من الفتنة فضرب الله تعالى على آذانهم وأمر الملك فسد عليهم الكهف وهو يظنهم أيقاظاً وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم قد غشيه ما غشيهم ثم رجلين مؤمنين يكتمان إيمانهما كتبا أسماءهم وأنسابهم وخبرهم في لوح من رصاص وجعلاه في تابوت من نحاس في البنيان وقالا لعل الله يطلع عليهم قوما مؤمنين فيعلمون خبرهم هذا قول ابن عباس.

والثاني: أن أحد الحواريين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلاّ سجد له فكره أن يدخلها فأتى حماماً قريباً من المدينة فكان يعمل فيه بالأجر وعلم فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم عن خبر السماء والأرض وخبر الآخرة فآمنوا به وصدقوه حتى جاء ابن الملك يوماً بامرأة فدخل معها الحمام فأنكر عليه الحواري ذلك فسبه ودخل فمات وماتت المرأة في الحمام فأتى الملك فقيل له إن صاحب الحمام قتل ابنك فالتمس فهرب فقال من كان يصحبه فسمي له الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا على صاحب لهم في زرع وهو على مثل أمرهم فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه فقالوا نبيت هاهنا ثم نصبح إن شاء الله فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم فناموا وخرج الملك وأصحابه يتبعونهم فوجدوهم قد دخلوا الكهف فكلما أراد رجل أن يدخل الكهف أرعب فقال قائل للملك أليس قلت إن قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً ففعل هذا قول وهب بن منبه.

والثالث: أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرافهم خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد فقال رجل منهم هو اسنهم إني لأجد في نفسي شيئا ما أظن أحداً يجده فقالوا ما تجد قال أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض فقاموا جميعاً فقالوا ربنا رب السموات والأرض فأجمعوا أن يدخلوا الكهف فدخلوا فلبثوا ما شاء الله هذا قول مجاهد[1].

كم كان عددهم ؟

يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

فهذا الجدال حول عدد الفتية لا طائل ورائه، وأنه ليستوي أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة، أو أكثر وأمرهم موكول إلى الله، وعلمهم عند الله، وعند القليلين الذين تثبتوا من الحادث عند وقوعه أو من روايته الصحيحة، فلا ضرورة إذن للجدال الطويل حول عددهم، والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل والكثير.

لذا يوجه القرآن الرسول ﷺ إلى ترك الجدال في هذه القضية وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تبدد من غير ما يفيد وفي ألا يقفوا[2] المسلم ما ليس به علم وثيق، وهذا الحادث الذي طواه الزمن من الغيب الموكول إلى علم الله، فليترك إلى علم الله[3].

وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنهم سبعة وقال أنا من القليل الذين قال الله عنهم وما يعلمهم

١- زاد المسير ج٥ ص١١٠.

٢- أي: لا يحكموا بالظن.

٣- في ظلال القرآن ص٢٢٦٥.

إلا قليل والله أعلم.

الدروس والعبر من القصة:

١- أهمية صفاء العقيدة وإخلاص العبادة لله الذي لا إله غيره حيث قالوا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

٢- الهداية تحتاج إلى تثبيت من الله فبعض الناس يسلك طريق الهداية فتراه مستقيماً فترة من الزمان ثم ينتكس، لذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك**»، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

٣- الشباب يمثلون مرحلة الحيوية والقدرة على الحركة والانطلاق فلقد قرر هؤلاء الشباب رفض الباطل وعدم الانصياع له والفرار بدينهم وتحمل المصاعب والمشاق من أجله.

٤- مسألة العزلة تختلف باختلاف الناس:

أ- فإذا كان الرجل قوي الإيمان عالماً بشرع الله ﷻ يستطيع أن يعلم الناس من حوله ويؤثر فيهم فهذا يستحب له أن يخالط الناس.

ب- وإذا كان الرجل ضعيف الإيمان يخشى على نفسه من ضياع إيمانه ودينه إذا خالط الناس فهذا يستحب له العزلة.

ج- ولقد كان الرجل من سلفنا الصالح يخالط الناس في الطاعات كصلاة الجمعة

والجماعة والعيدين وتشييع الجنازة وعيادة المرضى ودروس العلم، وكان يعتزل الناس في أي معصية لله ﷻ وكذلك فضول المباحات لئلا يضيع أغلى ساعات عمره التي سيسأله الله ﷻ عنها يوم القيامة[1].

قلت: وهذا النوع الثالث هو أفضل الأنواع الثلاثة والله أعلم.

٥- حسن التوكل على الله فمن توكل على الله كفاه فأصحاب الكهف هربوا بدينهم حباً في الله فلم يضيعهم، وانظر إلى حالهم وحال رسول الله ﷺ والصدّيق عندما خرجا بدينهما من قريش حتى نزلا غار ثور فقال أبو بكر ﷺ للنبي ﷺ : لو نظر أحدهم إلى تحت رجليه لرآنا فقال له رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

٦- قدرة الله عزوجل في خلقه فقد أمات العزير مئة عام ثم بعثة فأكلت الأرض عظام حماره بينما طعامه وشرابه لم يتغير وظل كما هو فظن انه لبث يوماً أو بعض يوم فلما رأى عظام حماره وقيامه بعد أن كان عظاماً نخره قال أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأصحاب الكهف ناموا ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً ولم تبلى أجسادهم فلما رأوا أنهم على هيئتهم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، فسبحان الذي أمات وأحيا وقدر فهدى.

٧- الربط على القلب هو مدد من الله يثبت به على عباده المؤمنين ولقد ساق لنا المولى ﷻ

١- القصص القرآني.

قصة أم موسى عليه السلام وكيف أنها كانت ستظهره لجنود فرعون لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين.

٨- وامرأة فرعون التي عاشت الدنيا بملذاتها فلما شعرت بنور الإيمان آمنت بموسى عليه السلام ورسالته فربط الله على قلبها فثبتت على إيذاء فرعون لها.

٩- أجاز الله ﷻ الاعتزال والفرار بالدين وقت الفتن الشديدة، فلقد اعتزل أصحاب الكهف وإبراهيم عليه السلام وغيرهم فكان الجزاء الربط على القلوب، والثبات على الإيمان، ونشر رحمة الله عليهم.

١٠- حفظ الله لأوليائه في حياتهم وبعد مماتهم فلقد حفظ أصحاب الكهف في الغار من أذى الهوام والسباع وحفظهم بعد مماتهم بعد أمن الناس بالدين الحق فبنوا عليهم مقبرة تحفظ أجسادهم إلى يوم القيامة، وانظر إلى خبيب بن عدي الذي حفظ الله جثمانه عندما قتل شهيداً وأرسل النبي ﷺ بعض الصحابة ليحضروا جثمانه من قريش، فلما حملوا جثته شعر بهم الكفار فتركوا الجثة فانشقت الأرض فابتلعتها ليصبح بليع الأرض ولم يعثر له على قبر إلى يومنا هذا.

١١- أهمية الالتزام بأمر الله في عدم الخوض والجدال في شأن أصحاب الكهف لأن العبرة بأفعالهم وثباتهم وإتباعهم للحق الذي آمنوا به.

١٢- يقول صاحب ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ـ من هداية هذه الآيات:

أ- تقرير النبوة المحمدية بذكر قصة أصحاب الكهف.

ب- تقرير زيادة الإيمان ونقصانه.

ت- فضيلة الجرأة في الحق والتصريح به ولو أدى إلى القتل أو الضرب أو السجن.

ث- تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله على لسان أصحاب الكهف.

ج- بطلان عبادة غير الله لعدم وجود عقلي أو نقلي عليها.

ح- فضيلة الالتجاء إلى الله تعالى وطلب حمايته لعبده وكفاية الله من لجأ إليه في صدق.

خ- بيان لطف الله تعالى بأوليائه بإكرامهم في هجرتهم إليه.

د- تقرير أن الهداية بيد الله فالمهتدي من هداه الله والضال من أضله الله ولازم ذلك طلب الهداية من الله، والتعوذ به من الضلال لأنه مالك ذلك.

ذ- بيان عجيب تدبير الله تعالى وتصرفه في مخلوقاته فسبحانه من إله عظيم عليم حكيم[1].

١- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ـ المجلد الثاني ص٦٤١.

١١- الفقير الشاكر والغني الفاجر

صاحب الجنتين:

قال تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:٣٢-٤٣].

معاني الكلمات:

لهم: للمؤمنين والكفار.

لأحدهما: الكافر.

جنتين: بستانين.

زرعاً: يقتات به في غاية الجود.

أكلها: ثمرها.

تظلم: تنقص.

فجرنا: شققنا.

لصاحبه: المؤمن.

يحاوره: يفتخر عليه.

نفرا: خدماً وحشماً وعبيداً.

ظالم لنفسه: بالكفر.

ما أظن أن تبيد هذه أبداً: أي لا تفنى ولا تتلف أبداً، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وكفره بالله.

لئن رددت إلى ربي: في الآخرة على زعمه.

لأجدن خيراً منها منقلبا: مرجعاً، فلولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، فهو قد أساء العمل وأساء الظن بالله، وذلك بظنه أنه سبحانه وتعالى سيجزيه أجر المحسنين.

يحاوره: يجاوبه.

من تراب: لأن آدم خلق من تراب.

نطفة: مني.

سواك: عدلك وصيرك.

لكنا: المعنى: لكن أنا.

قلت: عند إعجابك بها.

حسباناً: صواعق.

صعيداً زلقاً: أرضاً ملساء لا يثبت عليها قدم.

غوراً: ذاهباً في الأرض وهو ضد النابع.

طلباً: حيلة تدركه بها.

واحيط بثمره: وقع بهذا الكافر ما حذره منه المؤمن.

يقلب: يصفق واحدة على أخرى ندماً وتلهفاً وتحسراً على الأموال التي أذهبها عليها.

خاوية: ساقطة.

عروشها: دعائمها لعريش العنب بأن سقطت ثم سقط عريش العنب.

فئة: جماعة.

منتصراً: منتصراً بنفسه.

التفسير:

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ:

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾: هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين وهو متصل بقوله واصبر نفسك واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما[1].

قال عطاء كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار فقال صاحبه اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني اشتريت منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني أشتري منك داراً في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال اللهم إن فلاناً تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار وإني أشتري منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم أصابته حاجة شديدة فقال لعل صاحبي ينالني معروفه فأتاه فقال ما فعل مالك فأخبره قصته فقال وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث والله لا أعطيك شيئاً ثم قال له أنت تعبد إله السماء وأنا لا أعبد إلا صنماً فقال صاحبه والله لأعظنه فوعظه وذكره وخوفه فقال سر بنا نصطد السمك فمن صاد أكثر فهو على حق فقال له يا أخي إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن

١- القرطبي ١٠ ص ٤٠٨.

أو عقاباً لكافر قال فأكرهه على الخروج معه فابتلاهما الله فجعل الكافر يرمي شبكته ويسمي باسم صنمه فتطلع متدفقة سمكاً وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلع له فيها شيء فقال له كيف ترى أنا أكثر منك في الدنيا نصيباً ومنزلة ونفراً كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقاً قال فضج الملك الموكل بهما فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازل المؤمن فيها فلما رأى ما أعد الله له قال وعزتك لا يضره ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا وأراه منازل الكافر في جهنم فقال وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا ثم إن الله تعالى توفى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون فقال إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين الآية فنادى مناد يا أهل الجنة هل أنتم مطلعون فاطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم فنزلت ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾، بين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة وبين حالهما في الآخرة في سورة الصافات في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات:٥١-٥٢] إلى قوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١][1].

قال: صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

تجيء قصة الجنتين والرجلين تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس، المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة

١- المرجع السابق ص١٠ ص٣٩٩.

الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخله القوة ولا الجاه.

وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم موجبة لحمده وذكره ،لا لجحوده وكفره.

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة، فهما جنتان محترقتان من الكروم، محفوفتان بسياج النخيل، تتوسطها الزروع، ويتفجر بينهما نهر إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع، وها هو صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما فيحس بالزهو وينتفش كالديك ويختال كالطاووس ويتعالى على الفقير، ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملأ نفسه البطر وملأ نفسه الغرور، وقد نسى الله، ونسى أن يشكره على ما أعطاه وظن أن هذه الجنان المثمرة له لن تبيد أبداً، وأنكر قيام الساعة أصلاً، وهبها قامت فسيجد هناك الرعاية والإيثار، أليس من أصحاب الجنان في الدنيا؟

إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، إن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم إلى يوم الدين فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند الله مكان ملحوظ.

فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فإنه معتز بالله الذي تعنو له الجباه، فهو يذكر صاحبه بمنشئه المهين من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم وينذره عاقبة البطر والكبر، ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار.

وهكذا عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

وفجأة ينقلنا السياق في مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة وصاحبها يقلب كفيه آسفاً حزيناً على ماله الضائع وجهده الذاهب وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربو بيته ووحدانيته ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شريكاً ينكره الآن ويندم عليه يستعيذ منه بعد فوات الأوان.

هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة فلا قوة إلا قوته، لا نصر إلا نصره، وثوابه هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير ما يتبقى[1].

الدروس والعبر من القصة:

١- الكفر بنعم الله سبب في زوالها.

٢- من رزق خيراً ونعمة و سعة رزق عليه أن يحمد الله ويشكره.

٣- إذا رأى المسلم خيراً في أهله وماله فليقل «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» لأن المرء يمكن أن

١- في ظلال القرآن ص٢٢٧١.

يحسد أهله.

٤- من أحسن الظن بالله أحسن العمل، فهذا الكافر أحسن الظن بنفسه، ولم يحسن العمل، فلقد ظن هذا الغني، أن الغني في الدنيا سيكون كذلك في الآخرة، وأن فقراء الدنيا سيكونون كذلك في الآخرة وهذا ظن خاطئ لأن ميزان الآخرة غير ذلك فهو عدل قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[القصص:٨٤].

٥- على الفرد أن يتقبل النصح من الآخرين.

٦- عاقبة الفخر والتعالي على الناس وخيمة في الدنيا والآخرة.

ناقش الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ مسألة أيهما أفضل عند الله الفقير الصابر أم الغني الشاكر فقال ـ رحمه الله ـ:

١- من اعتمد على ماله ذل ومن اعتمد على عقله اختل ومن اعتمد على عقله ضل، ومن اعتمد على الله فلا ضل ولا ذل ولا اختل.

٢- الندم لا يعني شيئاً إذا جاء القدر كما التوبة لا تنفع عند الغرغرة.

٣- الحذر الحذر من المعاصي: قال وهب بن منبه: إن الرب تبارك وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل «أني إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية وإني إذا عُصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد[1].

١- الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٦٩.

٤- وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥]، ولكن الإنسان بشؤم معصيته يهيأ لأبنائه وذريته رفقة السوء وطريق الشر والغواية فلا يكن لذريته حماية رب العالمين وحفظه وتوفيقه ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢]، فالحذر الحذر من كل معصية تدرك بشؤمها السابع من الولد[١].

١- شؤم المعصية وأثره في حياة الأمة من الكتاب والسنة ص ٣٤.

١٢- موسى والخضر

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا
غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ
أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾
قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾
قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ
خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ
أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ
قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٦٠-٨٢].

معاني الكلمات:

لفتاه: يوشع بن نون.

لا أبرح: لا أزال أسير.

حقباً: دهراً طويلاً في بلوغ إن بعد.

بينهما: بين الحوت.

نسيا حوتهما: نسي يوشع حمله عند الرحيل، ونسي موسى تذكيره.

فاتخذ: الحوت.

سرباً: مثل السرب، وهو الشق الطويل الذي لا نفاذ له.

جاوزا: ذلك المكان بالسير إلى وقت الغداء من ثاني يوم.

غداءنا: هو ما يؤكل أول النهار.

نصباً: تعباً.

أرأيت: أي: تنبه.

أن أذكره: أي: أنساني ذكره.

واتخذ: الحوت.

عجباً: أي: يتعجب منه موسى وفتاه، لما تقدم بيانه من السرب.

ذلك: أي: فقدنا الحوت.

ما: بمعنى الذي.

نبغ: نطلبه، فإنه علامة لنا على وجود من نطلبه.

فارتدا: رجعا.

آثار هما قصصا: آثار مشيهما أي: يتبعانها.

عبداً: هو الخضر.

رحمة: نبوة.

لدنا: عندنا.

علماً: كان على علم من الله علمه إياه لا يعلمه موسى عليه السلام ، وكان موسى عليه السلام على علم من الله لا يعلمه الخضر كما قال الخضر لموسى عليه السلام كما في البخاري ٦٦، أي: صواباً أرشد به ٦٨، أي: لم تخبر بحقيقته.

عن شيء: تنكره مني في شريعتك، واصبر.

ذكراً: أي: حتى أذكره لك بعلته، فإن كلاً منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، فقبل موسى شرطه.

خرقها: الخضر، بأن اقتلع لوحاً منها من جهة البحر.

إمرا: عظيماً منكراً.

بما نسيت: أي: غفلت عن التسليم لك.

ترهقني: تكلفني.

من أمري عسراً: مشقة في صحبتي إياك، أي: عاملني فيها بالعفو و اليسر.

غلاماً: لم يبلغ .

فقلته: الخضر.

زكية: طاهرة لم تبلغ حد التكليف.

بغير نفس: أي: لم تقتل نفساً.

نكرا: منكراً.

فلا تصاحبني: لا تتركني أتبعك.

لدني: عندي.

عذرا: في مفارقتي لي.

استطعما أهلها: طلبا منهم الطعام ضيافة.

يريد أن ينقض: يسقط وينهدم لميلانه ، وللجدار إرادة بحسبه.

فأقامه: فرده إلى حالة الاستقامة.

أجراً: نأكله.

فراق: وقت فراق.

بتأويل: بتفسير.

وراءهم: أمامهم.

فأردت أن أعيبها: لأرده عنها لعيبها.

زكاة: صلاحاً وتقوى.

وأقرب: منه.

رحما: رحمة: وهي البر بوالديه.

كنز: مال مدفون لهما.

صالحا: فحفظ الكنز بصلاحه.

عن أمري: أي: اختياري بل بأمر من الله، وفيه دلالة على ما ذكرناه من نبوة الخضر عليه السلام.

تسطع: استطاع بمعنى أطاق.

التفسير:

ما سبب خروج موسى عليه السلام في هذا السفر:

روى ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه

أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت تجده فانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال فتاه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾.

قال فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾، قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا هو مسجي بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر من أنت؟ قال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علمنيه وأنت على علم من علم الله علمكه لا أعلمه فقال موسى ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾، فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير مال فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم قد حملونا بغير مال عمدت إلى سفينتهم فخرقتها قال: وقال رسول الله ﷺ كانت الأولى من موسى نسياناً وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل مانقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً

يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ فقال الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فقال له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾، فانطلقا حتى نزلا قرية من القرى وكانا جائعين فلم يرد أحد من أهل القرية أن يطعموهما فوجد الخضر جداراً قديماً يكاد أن يسقط، فقام الخضر وأسقطه ثم أعاد بناءه من جديد، فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك الآية هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ.

كيف فسر الخضر لموسى عليه السلام هذه المشاهد:

أما خرق السفينة لأنها كانت لمساكين وقيل أيتام كانوا يعملون بها في البحر وهى مصدر رزقهم الوحيد وكان هناك ملك ظالم يجمع السفن لتكون له فلما خرقها وجاء الملك وجد أن السفينة لا تصلح لمصادرتها فتركها، فكان على المساكين إصلاح هذا الجزء البسيط خير من ضياعها منهم، وأما الغلام فقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق عن سعيد عن ابن عباس به ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾: أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر قال قتادة قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى لكان فيه هلاكهما فليرض أمرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصح في الحديث لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وأما الجدار الذي كان للغلامين اليتيمين والكنز الذي كان تحت الجدار فقد ذكر ابن كثير أيضاً أن الحسن البصري قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: قال لوح من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ويضيف ابن كثير: «وحدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عبد الله بن عياش عن عمر مولى غفرة قال إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قال كان لوحاً من ذهب مصمت مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجب لمن عرف النار ثم ضحك عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وحدثني أحمد بن حازم الغفاري حدثتنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت سمعت صاحبي حماد بن الوليد الثقفي يقول سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قال سطران ونصف لم يتم الثالث عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح وقد قال الله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، قالت: وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء وكان نساجا وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم وإن صح لا ينافي قول عكرمة أنه كان مالاً لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم وقوله

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة قال سعيد بن جبير عن ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صلاحاً وتقدم أنه كان الأب السابع فالله أعلم[1].

هل كان الخضر نبياً أو ولياً ؟

أجاب على هذا السؤال الإمام ابن كثير بقوله دل سياق القصة على نبوته من وجوه :

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

الثاني: قول موسى عليه السلام له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٦٦-٧٠].

فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي أختصه الله به دونه، فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام وهذا دليل

١- تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٠.

مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته لأن الولي لا يجوز له الأقدام على قتل النفس بمجرد ما يلقى في خاطره (عقله) لأن عقله ليس واجب العصمة.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره وجلى قال بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف:٨٢].

يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به وأوحي إليه فيه، فدلت هذه الوجوه على نبوته، ولا ينافي ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته، كما قال الآخرون، وأما كونه ملكاً من الملائكة فغريب جداً.

وإذا ثبتت نبوته كما ذكرنا، فلم يبق لمن قال بولايته، وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر، مستند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه[1].

وقد اختلف العلماء هل الخضر باق إلى الآن أم مات:

وقد رجح القرطبي ـ رحمه الله ـ القول ببقائه إلى الآن غير أنه لا يوجد دليل في كتاب الله أو ورد عن رسول الله ﷺ يقول أنه باق إلى الآن، وأما ما ورد في مسند الإمام الشافعي قال: لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله ثقوا وإياه فأرجو، فإن المصاب من حرم الثواب، قال علي بن الحسين أتدرون من هذا؟ هذا الخضر، قال ابن كثير شيخ الشافعي القاسم العمري متروك وقال عنه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين أنه يكذب، زاد أحمد ويضع الحديث ثم هو

١- البداية والنهاية ص٢١٥.

مرسل ومثله لا يعتمد عليه ها هنا والله أعلم[١].

الدروس المستفادة من القصة:

يقول صاحب تفسير الكريم المنان ـ رحمه الله ـ:

١- وفي هذه القصة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى رحل مسافة طويلة من أجله[٢].

٢- قصة موسى والخضر دليل على صدق رسالة النبي محمد ﷺ حيث أخبرهم بقصة موسى والخضر وهى قصة وقعت قبل بعثة النبي محمد ﷺ بقرون عديدة.

٣- فوق كل ذي علم عليم فموسى كان أعلم أهل الأرض في زمانه ولكنه كان عليه أن يقدم المشيئة لذلك.

٤- إصرار المتعلم على بلوغ ما يريد أن يتعلمه وأن تعب أو سهر أو سافر.

٥- من أدب المتعلم مع معلمه أن يسمع ويطيع ولا يتعجل بل يصبر حتى ينتهي معلمه من درسه.

٦- فزع الإنسان بعقله المحدود عندما يرى أمرا غير مألوفاً للعادة من إنسان عاقل متزن يقدم على القتل وغيره.

١- المرجع السابق ص٢١٧.

٢- تفسير الكريم المنان ـ عبد الرحمن السعدي ص٤٨٣.

٧- الظلمة لا يهتمون بمصير الفقراء أو غيرهم وإنما يفضلون مصلحتهم على الجميع.

٨- الأولاد أن كانوا غير صالحين فلا فائدة منهم ووفاتهم خير من حياتهم ولكن عليك بالدعاء لإصلاح الذرية وتحري الحلال كي يكونوا صالحين إن شاء الله.

٩- رعاية الله للفقراء والمساكين والأيتام وضرورة تقديم العون والمساعدة لهم.

١٠- العمل الصالح ينفع صاحبه وأولاده من بعده فقد ذكر المفسرون أن صلاح الجد السابع نفع الأولاد وحفظ لهم الكنز حتى كبروا قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[النساء:٩].

١١- علم الظاهر يختلف عن الباطن فالظاهر من خرق السفينة وقتل الغلام وهدم وبناء الجدار أن ذلك فيه فساد كبير وعلم الحقيقة غير ذلك وأن ما حدث كان فيه مصلحة كبيرة للعباد.

١٣- قصة ذي القرنين

قال تعالى :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف:٨٣-٩٧].

معاني الكلمات :

سأتلوا: سأقص.

منه: من حاله وخبره.

ذكرا: خبراً.

آية رقم (٨٤): أي: أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب.

آية رقم (٨٥): أي: سلك طريقاً.

مغرب الشمس: هو مغرب الأرض.

عين حمئة: ذات حمأة وهي الطين الأسود وغربها في رأي العين.

قوماً: كافرين، سلطه الله عليهم.

إما أن تعذب: بالقتل والسبي.

وإما أن تتخذ فيهم حسناً: بالمن والفداء.

ظلم: بالاستمرار على الكفر.

نعذبه: نقتله.

عذاباً نكرا: منكراً فضيعاً شديداً بالنار .

جزاء الحسنى: في الدار الآخرة.

وسنقول له: الآية.أي: نأمره بما يسهل عليه.

مطلع الشمس: من الأرض.

من دونها: أي: الشمس.

سترا: أي: ليس لهم مباني يسكنون فيه، ولا أشجار تظلهم وتستر هم من حر الشمس،

وليس المعنى أنهم كانوا عراة، كما في بعض الدول «المتحضرة» في هذا الزمن.

كذلك: الأمر كما قلنا.

وقد أحطنا بما لديه خُبرا: علماً أي: نحن مطلعون على جميع أحوال جيشه لا يخفى علينا.

السدين: هما جبلان.

من دونهما: من أمامهما.

لا يكادون يفقهون قولا: أي لا يفهمون إلا بعد بطء.

يأجوج ومأجوج: قبيلتان.

مفسدون في الأرض: بالنهب والبغي عند خروجهم إلينا.

خرجاً: جعلاً من المال.

سداً: حاجزاً فلا يصلون.

ما مكني فيه ربي: من المال وغيره.

خير: من خرجكم الذي تجعلونه لي، فلا حاجة بي إليه واجعل السد تبرعاً.

ردماً: حاجزاً حصيناً.

زبر: قطع.

ساوى بين الصدفين: أي جانب الجبلين بالبناء.

جعله: أي: الحديد.

نارا: أي كالنار.

قطرا: النحاس المذاب.

فما اسطاعوا: أي يأجوج وماجوج.

أن يظهروه: يعلو ظهره لارتفاعه وملامسته.

وما استطاعوا له نقباً: لصلابته وسمكه.

وعد ربي: بخروجهم القريب من البعث.

دكاء: مستوياً بالأرض.

لاحقا: كائناً.

التفسير:

لماذا لقب بهذا الاسم وهل ذي القرنين هو الاسكندر الأكبر؟

رجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان وأن الأول طاف بالبيت مع إبراهيم عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه ووزيره الخضر وأما الثاني فهو الإسكندر المقدوني اليوناني وكان وزيره الفيلسوف المشهور إرسطاطاليس وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة ولأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكاً عادلاً ووزيره الخضر وقد قيل إنه كان نبياً وأما الثانى فقد كان كافراً ووزيره إرسطاطاليس الفيلسوف وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة فأين هذا من ذاك؟

وأما السبب الذي لأجله سمى ذا القرنين:

١- قال الزجاج والأزهري إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها وقرن الشمس من مغربها.

٢- وقيل إنه كان له ضفيرتان من شعر والضفائر تسمى قروناً.

٣- وقيل إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فسمى بذلك.

٤- وقيل إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه.

٥- وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن.

٦- وقيل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض وعن فتية خرجوا لا يدرى ما فعلوا فأنزل الله قصته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾: أي: وسعنا مملكته في البلاد، وأعطيناه من الآت المملكة مما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة، والمقاصد الجسيمة.

وعن حبيب بن حماز: قال: كنت عند علي بن أبي طالب وسأله رجل عن ذي القرنين، كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال له :سخر له السحاب، ومدت له في الأسباب، وبسط له في

النور وقال: أزيدك؟ فسكت الرجل وسكت علي ﷺ .

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾: يعني علماً وقيل معالم الأرض ومنازلها، وأعلامها، أثارها، وتعليم الألسنة فكان لا يغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: حتى إذا بلغ مغرب الشمس يعني: من الأرض انتهى إلى حيث لا يمكن أحد أن يجاوزه[1].

وقال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرّب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي، وكان يسمي بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهي عنده فرآى الشمس تغرب فيه ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والأرجح أنه كان مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ وتوجد البرك كأنها عيون الماء، ولكن يتعذر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يحدده، وليس لنا مصدر أخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده، وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح.

عند هذه الحميئة وجد ذو القرنين قوماً: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم

---

١ - البداية والنهاية ـ المجلد الأول ـ ص٢٩٨.

فيعذبهم عذاباً فظيعاً (نكرا) لا نظير له فيما تعرفه البشر، وأما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن والمعاملة الطيبة، والمعونة والتيسير.

وهذا هو دستور الحكم الصالح؛ فالمؤمن ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدي والظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء.

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ممكناً له في الأرض ميسرة له الأسباب ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

والقرآن لم يحدد المكان ولكنة وصف طبيعة وحال القوم الذين وجدهم ذو القرنين هناك أي أنها أرض مكشوفة لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار، فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر وهذا الوصف ينطبق على الصحاري والسهول الواسعة فهو لا يحدد مكاناً بعينه وكل ما نرجحه أن هذا المكان كان أقصى الشرق وقد يكون على شاطئ إفريقيا الشرقي وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم ستراً من الشمس.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين «بين السدين» ولا ما هما السدان كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين أو سدين

صناعيين تفصلهما فجوة أو ممر فوجد هناك قوماً متخلفين ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وعندما وجدوه فاتحاً قوياً، وتوسموا فيه الصلاح عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم ويغيرون عليهم من وراء الحاجزين ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم... وذلك مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم، وتبعاً للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم في مقاومة الفساد في الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه من المال، وتطوع بإقامة السد[1].

أما يأجوج ومأجوج فهم من علامات الساعة الكبرى وليس هم التتار لأن الثابت عن رسول الله ﷺ أن مجيئهم سيكون زمن المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان وذلك من العلامات الكبرى

فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ كُنَّا قُعُودًا نَتَحَدَّثُ فِي ظِلِّ غُرْفَةٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْنَا السَّاعَةَ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**لَنْ تَكُونَ أَوْ لَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَاتٍ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَالدَّجَّالُ وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَالدُّخَانُ وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ تَخْرُجُ نَارٌ مِنْ الْيَمَنِ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ**» متفق عليه.

ويأجوج ومأجوج عندما يخرجون سيسعون في الأرض فساداً ودماراً ولا يمرون بشئ إلا خربوه، وفي الحديث عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ

١- في ظلال القرآن ـ المجلد الرابع ص٢٢٩١-٢٢٩٢.

دخل عليها يوماً فزعاً يقول: «**لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا**» وحلَّق بأصبعه الإبهام والتي تليها قالت ابنة جحش فقلت: يارسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كَثُرَ الخبث**»[١].

ويأجوج ومأجوج سيخربون الأرض إلا مكة والمدينة سيجعل الله ﷻ عليهما ملائكة تحرسهما من هؤلاء الهمج وفي هذه الأثناء يكون المسيح عليه السلام انتهى من قتل المسيخ الدجال فيأخذ المؤمنين ويحتمي في جنبي الطور ويرسل الله ﷻ على يأجوج ومأجوج النغف[٢]، فيهلكهم به ثم يرسل الله عليهم طيراً فتحملهم وتطرحهم حيث يأمر الله ﷻ ، وتنتهي فتنتهم ويخرج عيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين فتعيش البشرية فترة من السعادة وسعة الرزق حتى أن المجموعة من الناس يأكلون الرمانة ويستظلون بقشرها.

قلت: ويأجوج ومأجوج ليس هم التتار والمغول الذين خربوا البلاد وقتلوا العباد لأن يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى ليوم القيامة وسيخرجون زمن المسيح عليه السلام ندعو الله أن ينجي الأمة من شرهم ومن فتنتهم آمين.

الدروس المستفادة :

١- يظهر مما سقناه أنه كان رجلاً صالحاً أتاه الله ﷻ من كل شيء سببا فسخر الأسباب لخدمة العباد فطاف بالمغرب فوجد فيها أمة من الناس مظلومة فنصرهم وأقام العدل

١- رواه البخاري (٦/ ٣٧١) كتاب الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج.

٢- النغف: دود يكون في أنف الإبل والغنم.

بينهم، وفي مشارق الأرض قضى على الفساد والجهل والطغيان حيث أقام سداً بينهم وبين يأجوج ومأجوج المفسدون في الأرض، وهو بذلك يمثل الملك العادل الذي تطمئن العباد لحكمه.

٢- أهمية الأخذ بالأسباب لبلوغ النتائج فقد كان ذي القرنين يتخذ لكل شيء أسبابه فيصل بتوكله على الله بالنتائج.

٣- الحاكم العادل ينشر الخير والعدل بين الناس.

٤- العدل يحتاج إلى قوة.

٥- الجهل يضعف الأمم ويجعلها بحاجة إلى غيرها فتصاب بالخوف والتبعية وعدم التحكم في مصيرها فقد وجد ذي القرنين في الشرق أمة مستضعفة فقدم لهم المساعدة وبنى لهم سداً يمنعهم من خطر المعتدين.

٦- الجزاء من جنس العمل فقد عاقب ذي القرنين الظالمين وأحسن إلى المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

٧- ربط الدين بالدنيا لأن الإسلام دين ودولة لذا لا تصلح الدولة الدينية لقيادة الدنيا فما الفائدة من دولة تعتمد في جميع مقدراتها على الغير، وإنما المطلوب إصلاح الدنيا بالدين والسعي للأخذ بوسائل التقدم والعلم الحديث مع التمسك بثوابت الدين.

٨- خطورة أن تتحكم قوى الشر في العالم فتفرض سياستها واقتصادها وتعليمها عليه، فتعتبر كل من لا يؤمن بفكرها عدواً لها، فتعمل على إبعاده والإتيان بأذناب لها ينفذون سياستها، وتطبيق قول القائل من «ليس معنا فهو ضدنا».

٩- لا بد من إرجاع الأمر إلى الله فقد كان ذي القرنين رجلاً يعمل العمل ثم ينسب النجاح إلى الله.

١٠- الغيب لا يعلمه إلا الله فرغم تمكن ذي القرنين من الأسباب إلا أنه كان يرجعها إلى الله ﷻ.

١٤- قصة الإفك

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١١-١٨].

معاني الكلمات:

بالإفك: أسوأ الكذب على عائشة رضى الله عنها بقذفها.

عصبة منكم: جماعة منكم: حسان بن ثابت ومسطح وحمنة بنت جحش وعبد الله بن أبي ابن سلول.

لا تحسبوه: يا آل أبي بكر.

بل هو خير لكم: إظهار شرف لكم باعتناء الله سبحانه بعائشة الصديقة أم المؤمنين حيث أنزل براءتها في القرآن العظيم وغير ذلك.

لكل امرئ: أي: عليه.

الذي تولى كبره: تحمل معظمه، فبدأ بالخوض فيه وهو عبد الله بن أبى سلول.

عذاب عظيم: هو النار في الآخرة.

لولا: هلا.

إذ: حين.

بأنفسهم: أي: بعضهم ببعض.

إفك مبين: كذب واضح.

جاؤوا: أي العصبة.

بأربعة شهداء: شاهدوه.

عند الله: في حكمه.

أفضتم: خضتم.

تلقونه بألسنتكم: أي: يرويه بعضكم.

هيناً: يسيراً سهلاً.

وهو عند الله عظيم: في الإثم، والله يغار لهذا، غيرةً تليق به، لا تشبه غيرة المخلوقين.

إذ: حين.

ما يكون: ما ينبغي.

سبحانه: أي: سبحان الله وتنزه أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله ﷺ.

بهتان: كذب.

يعظكم به: ينهاكم متوعداً.

إن كنتم مؤمنين: بالله وشرعه ،وتعظمون رسول الله ﷺ.

التفسير :

ذكر القرطبي ـ رحمه الله ـ أن في حادثة الإفك ثمان وعشرون مسألة نذكر بعضها ومن أراد المزيد فليرجع إلى تفسير القرطبي:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾: وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشة رضوان الله عليها وهو خبر صحيح مشهور أغنى اشتهاره عن ذكره وسيأتي مختصراً وأخرجه البخاري.

و عن أم رومان أم عائشة أنها قالت: لما رميت عائشة خَرَّت مغشياً عليها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾: الإفك الكذب.

الثالثة: لما خرج رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها معه في غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع وقفل ودنا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش فلما فرغت من شأنها أقبلت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسها ابتغاؤه فوجدته وانصرفت فلما لم تجد أحداً

وكانت شابة قليلة اللحم فرفع الرجال هودجها ولم يشعروا بنزولها منه فلما لم تجد أحدا اضطجعت في مكانها رجاء أن تفتقد فيرجع إليها فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المعطل إنا لله وإنا إليه راجعون وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة وقيل إنها استيقظت لاسترجاعه ونزل عن ناقته وتنحى عنها حتى ركبت عائشة رضي الله عنها وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحر الظهيرة فوقع أهل الإفك في مقالتهم وكان الذي يجتمع إليه فيه ويستوشيه ويشعله عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وهو الذي رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة رضي الله عنها فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال امرأة نبيكم باتت مع رجل وكان من قالته: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش هذا اختصار الحديث وهو بكماله وإتقانه في البخاري ومسلم وهو في مسلم أكمل.

وكان صفوان هذا صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته وكان من خيار الصحابة وقيل كان حصوراً لا يأتي النساء ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة رضي الله عنها، وقيل كان له ابنان يدل على ذلك حديثه المروي مع امرأته وقول النبي ﷺ في أبنيه: **«لهما أشبه به من الغراب بالغراب»**.

وقوله في الحديث والله ما كشف كنف أنثى قط يريد بزنا وقتل شهيداً ﷺ في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمان عمر ﷺ وقيل ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية

المسألة الرابعة: قال الماوردي وغيره اختلفوا هل حد النبي ﷺ أصحاب الإفك على قولين:

أحدهما: أنه لم يحد أحداً من أصحاب الإفك لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو ببينة ولم يتعبده الله أن يقيمها بإخباره عنها كما لم يتعبده بقتل المنافقين وقد أخبره بكفرهم قلت وهذا فاسد مخالف لنص القرآن فإن الله ﷻ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ

﴿شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤]، أي: على صدق قولهم ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، **والقول الثاني:** أن النبي ﷺ حد أهل الإفك عبد الله بن أبي ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وفي ذلك قال شاعر من المسلمين لقد ذاق حسان الذي كان أهله وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح وابن سلول ذاق في الحد خزية كما خاض في إفك من القول يفصح تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم وسخطة ذي العرش الكريم فأبرحوا وآذوا رسول الله ﷺ فيها فجللوا مخازي تبقى عمموها وفضحوا فصب عليهم محصدات كأنها شآبيب قطر من ذرى المزن تسفح، قلت: المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حد حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت لما نزل عذري قام النبي ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم وسماهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وفي كتاب الطحاوي ثمانين ثمانين قال علماؤنا وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذاباً عظيماً فلو حد في الدنيا لكان ذلك نقصاً من عذابه في الآخرة وتخفيفاً عنه مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها وبكذب كل من رماها فقد حصلت فائدة الحد إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وإنما حد هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة وقد قال ﷺ في الحدود: «**إنها كفارة لمن أقيمت عليه**».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾: هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا.

وروى أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته وذلك أنه دخل عليها فقالت له يا أبا أيوب أسمعت ما قيل فقال نعم وذلك الكذب أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك قالت لا والله قال فعائشة والله أفضل منك قالت أم أيوب نعم فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾: قال النحاس معنى بأنفسهم بإخوانهم فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه وتواعد من ترك ذلك[1].

وهذا حديث الإفك كما روى البخاري في صحيحه من حديث عروة بن الزبير عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي[2] وَأُنْزَلُ فِيهِ فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ[3] وَدَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعٍ[4] ظَفَارِ قَدْ انْقَطَعَ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ

١- تفسير القرطبي ج٢ ص١٩٨-٢٠٢.

٢- هودجي: ما تركبه المرأة فوق الدابة في السفر.

٣- قفل: القفول هو الرجوع.

٤- جزع: خرز فيه بياض وسواد.

وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ[١] الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ رَكِبْتُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا تَأْكُلُ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَدْلَجَ[٢] فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ[٣] حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَ وَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ[٤] رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تِيكُمْ[٥] ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ[٦] فَخَرَجَتْ

١- الرهط: الجماعة من الرجال دون العشرة.

٢- أدلج: الدلجة: السير أول النهار وقيل سير الليل كله.

٣- الاسترجاع: قوله (إنا لله وإنا إليه راجعون).

٤- أناخ: أبرك ناقته والمراد نزل.

٥- تيكم: يشير إلى عائشة.

٦- نقهت: شفيت واستعدت صحتي.

مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[١] وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا[٢] وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ[٣] قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الْغَائِطِ[٤] فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا[٥] فَقَالَتْ تَعِسَ مِسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا قَالَتْ أَيْ هَنْتَاهْ أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ قَالَتْ قُلْتُ وَمَا قَالَ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعْنِي سَلَّمَ ثُمَّ قَالَ كَيْفَ تِيكُمْ فَقُلْتُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ قَالَتْ وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا قَالَتْ فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ قَالَتْ يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا قَالَتْ فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ[٦] لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ[٧] بِنَوْمٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حِينَ اسْتَلْبَثَ[٨] الْوَحْيُ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ قَالَتْ فَأَمَّا

١- المناصع: موضع قضاء الحاجة.
٢- متبرزنا: الموضع الذي نتبرز فيه.
٣- الكنف: جمع كنيف وهو موضع قضاء الحاجة.
٤- الغائط: مكان قضاء الحاجة.
٥- مرطها: كساء من صوف.
٦- يرقأ: ينقطع.
٧- اكتحل: أهدأ واسعد.
٨- استلبث: أبطأ وتأخر.

أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَهْلَكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ قَالَتْ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ قَالَتْ بَرِيرَةُ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُه[1] عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ قَالَتْ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَتَثَاوَرَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ قَالَتْ فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ قَالَتْ فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَلَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي قَالَتْ فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ

١- أغمصه: أعيبه.

تَبْكِي مَعِي قَالَتْ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي قَالَتْ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ[1] بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ[2] دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لِأَبِي أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ قَالَ وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لِأُمِّي أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَتْ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي وَاللهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ قَالَ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ قَالَتْ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي قَالَتْ وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا قَالَتْ فَوَاللهِ مَا رَامَ[3] رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ[4]

١- ألممت: فعلت وارتكبت.

٢- قلص: جف وذهب.

٣- رام: فارق.

٤- البرحاء: الشدة والتغير في الحال.

حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّر[١] مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ[٢] مِنْ الْعَرَقِ وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُرِّي[٣] عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللهُ ﷻ فَقَدْ بَرَّأَكِ فَقَالَتْ أُمِّي قُومِي إِلَيْهِ قَالَتْ فَقُلْتُ لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ ﷻ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَلَى وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي فَقَالَ يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا قَالَتْ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ»[٤].

١- يتحدر: ينزل ويقطر.

٢- الجمان: حبات من اللؤلؤ والمراد العرق على هيئة اللؤلؤ.

٣- سري: كشف عنه.

٤- رواه البخاري ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ـ رقم الحديث (٤٣٨١).

الدروس المستفادة:

وقد أورد الإمام النووي الفوائد الآتية:

١- جواز سفر الرجل بزوجته.

٢- جواز حضورهن القتال.

٣- جواز ركوب النساء في الهودج.

٤- جواز خدمة الرجال لهن في تلك الأسفار.

٥- أن ارتحال العسكر يتوقف على أمر الأمير.

٦- جواز خروج المرأة لحاجة لقضاء حاجتها بغير إذن الزوج إذا كانت في الخلاء بعيداً عن العمران وهذا من الأمور المستثناة، مع ملاحظة أننا في هذا العصر قد توفرت وسائل قضاء الحاجة في البيوت وفي بعض الأماكن العامة.

٧- جواز لبس النساء للقلائد في السفر كالحضر.

٨- أن من يركب المرأة البعير وغيره لا يكلمها إذا لم يكن محرماً إلا لحاجة، لأنهم حملوا الهودج ولم يكلموا من يظنونها فيه.

٩- إعانة الملهوف، وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع، وإكرام ذوي الأقدار كما فعل صفوان ﷺ.

١٠- حسن الأدب مع الأجنبيات لا سيما في الخلوة بهن عند الضرورة في برية أو غيرها كما فعل صفوان ﷺ من إبراكه الجمل من غير كلام ولا سؤال، وإنه ينبغي أن يمشي قدّامها ولا بجنبها ولا ورائها.

١١- استحباب الإيثار بالركوب ونحوه كما فعل صفوان.

١٢- استحباب الاسترجاع عند المصائب سواء كانت في الدين أو الدنيا، وسواء كانت في نفسه أو من يعز عليه.

١٣- تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي، سواء كان صالحاً أو غيره، فواعجباً عندما نشاهد النساء يختلطن بالرجال في الأسواق وعلى قارعة الطريق حتى أننا نرى رجالاً يدخلون البيوت في غير وجود صاحب البيت ويقومون بالبيع والشراء مع النساء العاريات الوجوه والورع والخوف من الله الواحد القهار.

١٤- استحباب أن يستر على الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة، كما كتموا على السيدة عائشة رضي الله عنها.

١٥- استحباب ملاطفة الرجل زوجته، وحسن عشرتها، فالنبي ﷺ رغم علمه بحديث الناس إلا أنه عامل السيدة عائشة رضي الله عنها بلطف وسعة صدر، ولو حدث ذلك لغيره لما ملك زمام أمره، ولكنه النبي الرحيم الصابر المحتسب، لذا يقف المستشرقون عند حادثة الإفك وقفة المعترف بعظمة الرسول ﷺ وصدق رسالته، فلو كان محمداً غير نبي لفكّر في مخرج من هذه المحنة، ولكنه صبر حتى نزل الوحي من فوق سبع سماوات يبرئ ساحة السيدة عائشة من هذا الاتهام الكاذب.

١٦- استحباب السؤال عن المريض.

١٧- يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن يكون معها رفيق تستأنس به خشية أن يتعرض لها أحد.

١٨- كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا أذى أهل الفضيلة، وليس أدل على ذلك دعاء أم مسطح على ولدها مسطح عندما تحدث على السيدة عائشة بالسوء.

١٩- أن الزوجة لا تذهب إلى بيت زوجها إلا بإذن زوجها، ومن تفعل غير ذلك فهي آثمة شرعاً.

٢٠- استحباب أن يشاور المرء بطانته وأهله فيما يود فعله.

٢١- جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة عمن له به تعلق، أما غيره فهو منهي عنه، وهو تجسس وفضول.

٢٢- خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم.

٢٣- اشتكاء ولي أمر المسلمين إليهم من تعرض له بأذى في نفسه أو أهله أو غيره.

٢٤- شهادة النبي ﷺ لصفوان بن معطل وسعد بن عبادة بالفضل وكذلك أسيد بن خضير.

٢٥- المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات، والمنازعات، وتسكين الغضب، لذا عندما يجد المجتمع فئة تنصر الحق وتقوم بالصلح بين الناس فإن أموره تستقيم وينصلح حاله، وتسود المحبة والاحترام بين أبنائه.

٢٦- قبول التوبة والحث عليها.

٢٧- براءة السيدة عائشة رضي الله عنها براءة قطعية بنص القرآن الكريم، فلو تشكك فيها إنسان ـ والعياذ بالله ـ صار كافراً مرتداً بإجماع المسلمين، قال ابن عباس وغيره: لم تزن امرأة نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا إكرام من الله تعالى لهم.

٢٨- تجديد شكر الله تعالى عند تجديد النعم.

٢٩- استحباب صلة الأرحام إن كانوا مسيئين.

٣٠- استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات.

٣١- استحباب العفو عن المسيء.

٣٢- أنه يستحب لمن حلف على يمين ورأى خيراً منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه.

٣٣- فضيلة زينب أم المؤمنين رضي الله عنها.

٣٤- التثبت في الشهادة.

٣٥- إكرام المحبوب بمراعاة أصحابه، ومن خدمه أو أطاعه كما فعلت السيدة عائشة رضي الله عنها بمراعاة حسان بن ثابت إكراماً للنبي ﷺ.

٣٦- جواز سب المتعصب للمنافق، كما سبَّ أسيد بن خضير سعد بن عبادة، وقال له: أنت منافق تجادل عن المنافقين[1].

١- صحيح مسلم بشرح النووي، المجلد التاسع من ص١٢٩-١٣٢.

١٥- قارون

قال تعالى:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٧٦-٨٣].

معاني الكلمات:

فبغى عليهم: بالكفر والعلو وكثرة المال.

لتنوء: تثقل.

بالعصبة: الجماعة.

أولي: أصحاب.

القوة: الشدة.

إذ قال له قومه: المؤمنون من بني إسرائيل.

لا تفرح: بكثرة المال فرح بطر، أما الفرح بمعنى السرور فلا يكره.

لا يحب الفرحين: بذلك.

ابتغ: اطلب.

آتاك: أعطاك.

الدار الآخرة: بأن تنفقه في طاعة الله.

ولا تنس: تترك.

نصيبك من الدنيا: أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب وغيرها.

الفساد في الأرض: بعمل المعاصي.

القرون: الأمم.

وأكثر جمعا: للمال.

ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون: لكثرتها.

عظيم: وافر في الدنيا.

الذين أتوا العلم: النافع.

ويلكم: كلمة زجر.

ثواب الله: في الآخرة بالجنة.

خير: مما أوتى قارون في الدنيا.

ولا يلقاها: أي: الجنة.

الصابرون: على الطاعة، وعن المعصية.

به: بقارون.

من دون الله: أي: غيره بأن يمنعوا عنك الهلاك.

وما كان من المنتصرين: في نفسه لنفسه.

بالأمس: أي: من قريب.

ويكأن: ألم تر أن.

يبسط: يوسع.

يقدر: يضيق على من يشاء، وليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه.

لولا أن منّ الله علينا: أي: لولا لطف الله بنا.

لخسف بنا: كما خسف به.

الدار الآخرة: الجنة.

علوا في الأرض: بالبغي والتجبر والترفع على خلق الله.

ولا فسادا: بعمل المعاصي.

العاقبة: المحمودة.

للمتقين: أي الذين يعملون الطاعات، ويتركون المعاصي.

التفسير:

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: «إن قارون كان من قوم موسى»، قال: كان ابن عمه وهكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام.

وقال قتادة بن دعامة كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى فأهلكه البغي لكثرة ماله.

وقال شهر بن حوشب زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفعاً على قومه وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾: أي: الأموال، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾: أي: ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها قال الأعمش عن خيثمة كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح مثل الإصبع كل مفتاح على خزانة على حدته فإذا ركب حملت على ستين بغلاً أغر محجلاً وقيل غير ذلك والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: أي: وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصح والإرشاد لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: قال ابن عباس ﷺ : يعني المرحين وقال مجاهد يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

وقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولزورك عليك حقاً فآت كل ذي حق حقه.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾: أي: أنا لا أفتقر إلى ما تقولون فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي فتقديره إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

[الزمر:٤٩]: أي: على علم من الله بي وكقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾[فصلت:٥٠]: أي: هذا أستحقه.

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾: أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن محبة منا له وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال: ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾: أي: لكثرة ذنوبهم قال قتادة: «على علم عندي» على خير عندي.

وقال السدي على علم أني أهل لذلك وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطي.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾: يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه فلما راه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها وتمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطي.

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾: أي: ذو حظ وافر من الدنيا فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾: أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون كما في الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» واقرأوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة:١٧]، وقوله: ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص:٨٠]، قال السدي: ولا يلقى الجنة إلا الصابرون.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾: أي: الذين لما رأوه في زينته: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود أن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾: أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾: يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة[1].

يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ معلقاً على قول المولى ﷻ.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾.

هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فابتعلته وابتعلت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقاً، وذهب ضعيفاً عاجزاً، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال، وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس، ودتهم الضربة القاضية إلى الله، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال، وكان هذا

١- تفسير ابن كثير ج٣ من ص٣٩٩-٤٠٣.

المشهد الأخير، ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

وقفوا يحمدون الله إن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما أتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليله، وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله، فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب، ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف، إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾: تلك الآخرة التي تحدث عنها الذين أوتوا العلم، ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاغترار بذواتهم والاغترار بأشخاصهم وما يتعلق بها، إنما يتزارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله، ومنهجه في الحياة، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً ولا يبغون فيها كذلك فساداً أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة تلك الدار السامية ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه وفي تلك الدار يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه: الحسنة بأضعافها وبما هو خير والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسراً من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون[1].

١- في ظلا ل القرآن (٥/ ٢٧١٣/ ٢٧١٤).

الدروس المستفادة:

١- من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه فما الفائدة من القربة من الصالحين دون العمل والسير على خطاهم لذا اهلك الله زوجة لوط وابن نوح وقال ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: **«اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئا»**.

٢- نهى الله عن البغي والتعدي على حقوق العباد.

٣- البغي يأخذ صوراً متعددة منها غصب المال ومنها غصب الأرض ومنها أخذ حق الفقراء ومنها التطاول على الضعفاء.

٤- فتنة المال هي من أشد الفتن على العباد.

٥- ليس المال وحده دليل على السعادة في الدنيا فهناك الكثير معهم الأموال والأولاد غير أنهم حرموا نعمة الأمن والاستقرار وقد قال الشاعر:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد

٦- انخداع الكثير من الناس بالمظاهر فعندما يرون من يلبس الثياب الفاخرة يتمنون أن يكونوا مثله وهذا جهل أيضاً لأن المظهر وحده لا يكفي في الحكم على الناس فرب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، ورب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة أي عارية من الحسنات.

٧- على المرء أن لا ينسى نصيبه من الدنيا بأن يأكل ويشرب ويلبس ويتمتع بالحلال دون إفراط ولا تفريط.

٨- من رزق مالاً أو علماً عليه أن يؤدي شكره فشكر المال إخراج حق الأيتام والمساكين

والمحتاجين ومن رزق علماً عليه أن يعلم الناس الخير.

٩- بعض العلماء يغترون بعلمهم ويظن الواحد منهم أنه العالم العلامة والفاهم الفهامة وهو وحيد عصره وزمانه ونسى أن على العلماء التواضع وعلى العالم كلما ازداد علماً عليه أن يزداد تواضعاً.

١٠- العناية الإلهية تتدخل دائماً لإنقاذ عباده وعدم الفتنة بالظالمين.

١١- يقول صاحب ـ أيسر التفاسير: ومن هدي الآيات:

- المال والمنصب العالي عرضة لإفساد المرء إلا من رحم الله ﷻ وقليل ما هم.
- حرمة الفرح بالمال والإمارة إذا كان الفرح بطر وفخر واغترار واعتزاز.
- من فضل الله على الأمة أن يوجد فيها عالمون ينصحون ويرشدون ويوجهون.
- بيان أن الفتنة أسرع إلى قلوب الماديين أبناء الدنيا والعياذ بالله.
- بيان أن البغي يؤخذ به البغاة في الدنيا ويعذبون به في الآخرة.
- بيان أن وجود الإيمان خير من عدمه وإن قل وأن ذا الإيمان أقرب إلى التوبة ممن لا إيمان له[1].

١٢- لا يجتمع في قلب العبد حب الله وحب الدنيا والانغماس في ملذاتها لأن الانغماس فيها يشغل عن طاعة الله وينسي العبد لقاء الله.

١- أيسر التفاسير ـ المجلد الثالث ـ ص ٤٢٤.

١٦- لقمان الحكيم

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٢-١٩].

معاني الكلمات:

بني: تصغير إشفاق.

ووصينا الإنسان بوالديه: أمرناه أن يبرهما.

حملته أمه: فوهنت.

وهناً على وهن: ضعفت للحبل، وضعفت للطلق، وضعفت للولادة.

فصاله: فطامه.

المصير: المرجع.

معروفاً: أي بالمعروف: البر والصلة.

سبيل: طريق.

أناب: رجع.

إلي: بالطاعة وهو سبيل المؤمنين.

فأنبئكم بما كنتم تعملون: فأجازيكم عليه.

إنها: أي الخصلة السيئة أو الخطيئة.

مثقال: وزن.

يأت بها الله: أي يحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، ويجازي عليها.

لطيف: أي لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقت ولطفت وتضاءلت.

خبير: بكل شئ حتى إنه ليعلم بدبيب النمل في الليل الأسود الشديد السواد.

أقم الصلاة: أي بحدودها وفروضها وأوقاتها.

واصبر على ما أصابك: بسبب الأمر والنهي.

إن ذلك: المذكور.

من عزم الأمور: من معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها.

تصعر: تعرض وتتكبر والصعر: داء يقلب رأس البعير في جانب فشبه المتكبر به.

مرحاً: متكبراً جباراً عنيداً.

مختال: معجب في نفسه.

فخوراً: على الناس.

اقصد في مشيك: توسط فيه بين الدبيب والإسراع، وعليك السكينة والوقار.

واغضض: اخفض.

أنكر الأصوات: أقبحها.

لصوت الحمير: أوله زفير، وأخره شهيق.

التفسير:

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبيا، وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم فأثنى عليه، وحكى عن كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحب الخلق إليه، وهو أشفق الناس عليه، فكان من أول من وعظه به أن قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ فنهاه عنه وحذره منه.

وقال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثناجرير، عن الأعمش، عن ابراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك ألم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾».

وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل، فإن الله يسأل عنها، ويحضرها حوزة الحساب، ويضعها في الميزان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة كالخردلة، ولو كان في جوف صخرة صماء ،لا باب لها ،أو لو كانت ساقطة في شيئ في ظلمات الأرضية أو السموات في اتساعها وامتداد أرجائها لعلم الله مكانها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: أي: علمه دقيق، فلا يخفى عليه الذر مما تراءى للنواظر أو توارى، كما قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] وقال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

ثم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أدِها بجميع واجباتها وأوقاتها وركوعها

وسجودها و طمأنينتها وخشوعها، كما شرع فيها واجتنب ما نهى عنه فيها: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: أي: بجهدك وطاقتك، إن استطعت باليد فباليد، وإلا فبلسانك، فإن لم تسطع فبقلبك ثم أمره بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مظنه أو يعادى وينال منه ولكن له العاقبة ولهذا أمره بالصبر على ذلك ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أي: أمرك ونهيك عن المنكر، وصبرك على الأذى من عزائم الأمور التي لا بد منها ولا محيد عنها وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، معناه: لا تتكبر على الناس وتميل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه الكبر عليهم والإزدراء لهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: ينهاه عن التبختر في المشية على وجه العظمة والفخر على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧]: يعني: لست بسرعة مشيتك تقطع البلاد، ولست بدقك الأرض برجلك تخسف الأرض بوطئك عليها، وليس بتشامخك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولاً، فائتد[1]، فلن تعدو قدرك وقد ثبت في الحديث: «**بينما رجل يمشي في برديه يتبختر فيهما، إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»، وفي الحديث الآخر: «**وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله**»، كما قال في هذه الأية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

١- فائتد: أي: امش بهدوء وسكينة.

ولما أمره بعدم الاختيال في المشي أمره بالقصد فيه، فإنه لا بد له أن يمشي فنهاه عن الشر وأمره بالخير فقال: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾: أي: لا تتباطأ مفرطاً، ولا تسرع إسراعاً مفرطاً، ولكن بين ذلك قواماً، كما قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]، ثم قال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾: يعني: إذا تكلمت فلا تتكلف رفع صوتك فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير وقد ثبت في الصحيح الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل فإنها رأت شيطاناً.

ومن حكم لقمان قال الإمام أحمد: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «**إن لقمان الحكيم كان يقول: «إن لله إذا استودع شيئاً حفظه»**».

وعن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخمرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**قال لقمان لابنه يا بني إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذلة بالنهار**»، وعن عون بن عبد الله قال: «قال لقمان لابنه يا بني إذا أتيت نادي قوم، فارمهم بسهم الإسلام «يعني السلام» ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجعل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم».

ومن حكمه أيضا:

«يابني اعتزل الشر يعتزلك، فإن الشر للشر خلق».

«يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشارك في أمرك العلماء»[1].

١- البداية والنهاية: المجلد الأول من ص٣٠٣-٣٠٧.

ومنها أيضاً: «ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان، من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له».

أخرج الإمام مسلم في صحيحه أن سبب نزول قول المولى ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان:١٥]، أنها نزلت في الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص ﷺ فعن مصعب بن سعد عن أبيه ﷺ: «إنها نزلت فيه آيات من القرآن قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً، حتى يكفر بدينه، أو لا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك فأنا أمك وأنا آمرك بهذا، قال: فمكثت ثلاثاً، حتى غُشِيَ عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له: عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨]». أخرجه مسلم.

الدروس والعبر:

١- النهي عن الشرك بالله الواحد القهار، لأنه ليس بعد الكفر ذنب.

٢- الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما ـ ولو كانا مشركين ـ.

٣- على الوالد والوالدة أن يكونا قدوة صالحة لأبنائهما.

فالطفل الذي يرى أبويه يكذبان أمام سمعه وبصره لا يمكن أن يتحلى بخلق الصدق.

والطفل الذي يرى الغش والخيانة لا يمكن أن يتصف بالأمانة.

والطفل الذي يخرق سمعه الكلمات النابية وألفاظ الكفر واللعن والسب والشتم، لا

يمكن أن يكون حلو اللسان.

والطفل الذي يعيش دائماً في جو نفسي مضطرب بسبب الشقاق والنزاع بين أبويه، وعصبية وانفعال كل منهما على الآخر لا يمكن أن يتعلم الاستقرار ولا أن يتحلى بالثبات والاتزان.

والطفل الذي يلقى القسوة والغلظة من أبويه أو أحدهما على الدوام لا يعرف قلبه الرحمة والألفة والمودة[1].

مع الأخذ في الاعتبار أن الهداية من الله فكم من فرد نشأ في بيئة فاسدة ثم يسر الله له أسباب الهداية فكان قدوة في الخير والصلاح.

- على الولد أن يكون عوناً لوالديه مطيعاً لهما وباراً بهما.
- أن يسمع كلامهما، ويقوم لقيامهما، ويمتثل لأمرهما، ولا يمشي أمامهما، ولايخالف نصائحهما.
- التحدث مع الوالدين بأدب جم، ولا يرفع صوته فوق أصواتهما.
- يلبي دعوتهما، ويحرص على مرضاتهما، ويخفض جناح الذل لهما.
- لا يخرج إلا بإذنهما أو إذن أحدهما، ولا يسافر إلا بإذنهما.
- لا يمن عليهما بالبرهما ولا بالقيام بأمرهما.
- لا يقطب وجهه في وجههما، بل يكون هاشاً باشاً لهما.

١- كيف نربّي أولادنا إسلامياً ص١٨١.

- أن يدعو الله تعالى لهما بكل خير في حياتهما وبعد مماتهما[٢].

٤- إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت، ولكن قل عليَّ رقيب

فالله مطلع عليك وعلى عملك فلا تستحقر من أمر الخير شيئاً فرب درهم خرج منك دون رياء خير من ألف درهم.

٥- على المرء قبل أن يدعو غيره عليه بالاستقامة وتأدية ما أمر الله به من إقامة للصلاة على وجهها الصحيح فإنها تنهى عن الفحشاء، وبها يصبح العبد مؤهلاً لأن يأمر بالمعروف الذي يعمل به وينهى عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

٦- على الداعية أن يتواضع ولا يتعالى على الناس، خاصة أن الناس ينظرون إليه أنه قدوة صالحة لهم.

٧- ليس بالتعالي على الناس والتفاخر عليهم تستميل قلوبهم فإن الكبرياء والعظمة لله، وعلى العاقل أن يعلم أنه ضعيف ولن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً وليعتبر من قارون وأمثاله.

٨- القصد في المشي بحيث لا يتباطأ المرء في مشيته ولا يسرع إسراعا مفرطاً، لأن القصد هو الاعتدال فلا تلكؤ ولا تخايل، ولا تبختر.

٩- النهي عن التكلف في الكلام، والتقعر فإن السبيل الأمثل البساطة والصدق في الحديث.

٢- المرجع السابق ٢١٠.

١٧- قصة زيد بن حارثة وتحريم التبني

قال تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٦-٤٠].

معاني الكلمات :

الخيرة: الاختيار.

من أمرهم: خلاف ما أمر الله ورسوله.

مبيناً: بيناً واضحاً.

أنعم الله عليه: بالإسلام.

وأنعمت عليه: بالعتق.

اتق الله: في أمر طلاقها.

وتخفي في نفسك ما الله مبديه: من أنها ستكون زوجتك.

وتخشى الناس: أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه.

الله أحق أن تخشاه: في كل شيء.

فلما قضى زيد منها وطراً: حاجة وفرغ منها وفارقها.

زوجناكها: فدخل عليها النبي ﷺ بغير ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود.

فرض الله: أحل له وأمره أن يتزوج زينب رضى الله عنها.

سنة الله في الذين خلوا من قبل: من الأنبياء.

أمر الله: الذي يقدره.

قدراً مقدوراً: واقعاً لا محالة.

يخشونه: يخافونه.

حسيباً: نصيراً ومعيناً.

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم: فليس أباً لزيد، فانسبوه لأبيه فقولوا: زيد بن حارثة.

خاتم النبيين: فلا نبي بعده.

التفسير:

قال: ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ في سبب نزولها قولان:

أحدهما: أن رسول الله انطلق يخطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فقالت: لا أرضاه ولست بناكحته فقال رسول الله ﷺ: «**بلى فانكحيه فإني قد رضيته لك**» فأبت فنزلت هذه الآية وهذا المعنى مروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخا زينب كره ذلك كما كرهته زينب فلما نزلت الآية رضيا وسلما قال مقاتل والمراد بالمؤمن عبد الله بن جحش والمؤمنة زينب بنت جحش.

والثاني: أنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت فوهبت نفسها لرسول الله فقال قد قبلتك وزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجها عبده فنزلت هذه الآية قاله ابن زيد والأول عند المفسرين أصح.

قصة وقوع زيد بن حارثة في الرق:

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ:

أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة وروى الأئمة أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٥].

وكان زيد فيما روي عن أنس بن مالك وغيره مسبياً[1] من الشام سبته خيل من تهامة فابتاعه[2]

١- أي: وقع في الرق والعبودية.

٢- اشتراه.

حكيم بن حزام بن خويلد فوهبه لعمته خديجة رضي الله عنها فوهبته خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ فأعتقه وتبناه فأقام عنده مدة ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه فقال لهما النبي ﷺ ـ وذلك قبل البعث ـ: «**خيراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء**»، فاختار الرق مع رسول الله ﷺ على حريته وقومه فقال محمد رسول الله ﷺ عند ذلك: «**يامعشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه**» وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم على ذلك فرضي ذلك عمه وأبوه وانصرفا وكان أبوه لما سبى يدور الشام ويقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما أفعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله لا أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل

فياليت شعري هل لك الدهر؟ ... أوبة فحسبي من الدنيا رجوعك لي

إن هبت الأرياح هيجن ذكره ... فياطول ما حزني عليه وما وجل

سأعمل نصف العيش في الأرض ... جاهدا ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل

حياتي أو تأتي علي منيتي ... فكل امرئ فان وإن غره الأمل[1]

حب النبي ﷺ لزيد وقصة زواجه من السيدة زينب:

قال: ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

يقول تعالى مخبراً عن نبيه أنه قال لمولاه زيد بن حارثة ﷺ وهو الذي أنعم الله عليه أي بالإسلام ومتابعة الرسول «وأنعمت عليه» أي بالعتق من الرق وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له الحب ويقال لابنه أسامة الحب بن الحب

١- تفسير القرطبي ج١٤ ص١١٨.

قالت عائشة رضي الله عنها مابعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمرّه عليهم ولو عاش بعده لاستخلفه رواه الإمام أحمد.

وعن عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال حدثني أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال كنت في المسجد فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقالا يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت: علي والعباس يستأذنان فقال: أتدري ماحاجتهما؟ قلت: لا يا رسول الله.

قال لكني أدري.

قال فأذن لهما.

قالا يا رسول الله جئناك لتخبرنا أي أهلك أحب إليك؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد قالا يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة قال فأسامة بن زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه.

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها وأمها أميمة بنت عبد المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وخمسين مداً من طعام وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له أمسك عليك زوجك واتق الله.

ما هو الشيء الذي أخفاه رسول الله ﷺ :

وقال: ابن كثير ـ رحمه الله ـ أيضاً:

قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾:

ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هنا آثاراً عن بعض السلف ﷺ أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها وقد روى الإمام أحمد ها هنا أيضا حديثاً من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس ﷺ فيه غرابة تركنا سياقه أيضا وقد روى البخاري أيضا بعضه مختصراً فقال عن أنس بن مالك ﷺ إن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما.

وعن علي بن زيد بن جدعان قال سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى: «وتخفي في نفسك ما الله مبديه» فذكرت له فقال: لا، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد ﷺ ليشكوها إليه قال اتق الله وأمسك عليك زوجك فقال قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه وهكذا روي عن السدي أنه قال نحو ذلك.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لو كتم محمد شيئا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾: الوطر: هو الحاجة والأرب أي: لما فرغ منها وفارقها زوجناكها وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.

قال الإمام أحمد، عن ثابت عن أنس ﷺ قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة اذهب فاذكرها علي فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول

الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت يازينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي ﷻ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم.

و عن أنس بن مالك ﷺ قال إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات، وقد قدمنا في سورة النور عن محمد بن عبد الله بن جحش قال تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها أنا التي نزل تزويجي من السماء وقالت عائشة رضي الله عنها أنا التي نزل عذري من السماء فاعترفت لها زينب رضي الله عنها[1].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

كانت العرب تعتقد أنه يحرم عليه نساء من تبنوه كما تحرم عليه نساء أبنائهم حقيقة، فأخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم إذا قضوا منهن وطرا بخلاف ابن الصلب فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها وكان أمر الله مفعولا أي: كان قضاء الله في زينب رضي الله عنها أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاء ماضياً مفعولاً لا محالة ثم بين سبحانه أنه لم يكن على رسول الله ﷺ حرج فى هذا النكاح فقال: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ أي: فيما أحل الله وقدره وقضاه يقال فرض له كذا أي قدر له: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾

١- تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩٢.

أي: إن هذا هو السنن الأقدم في الأنبياء والأمم الماضية أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره وكان أمر الله قدراً مقدورا أي: قضاء مقضياً.

قال مقاتل أخبر الله أن أمر زينب كان من حكم الله وقدره، ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده وخشيته في كل فعل وقول ولايخشون سواه ولايبالون بقول الناس ولابتعييرهم بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه وكفى بالله حسيباً حاضراً فى كل مكان يكفى عباده كل ما يخافونه أو محاسباً لهم في كل شيء.

ولما تزوج زينب قال الناس تزوج امرأة ابنه فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: أي: ليس بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته ولا هو أب لأحد لم يلده.

قال الواحدى قال المفسرون لم يكن أبا أحد لم يلده وقد ولد له من الذكور إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر قال القرطبى ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا[1] قال وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له[2].

الدروس المستفادة

١- وجود الإذعان والانقياد لأوامر الله تعالى والسمع والطاعة فإن الإيمان لا يكتمل إلا

١- أي ماتوا صغاراً.

٢- طبقان المفسرين - ج١ ص١.

بطاعة الله ورسوله قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥].

٢- تثبيت القاعدة الشرعية لا اجتهاد مع نص.

٣- الآيات المباركات دليل صدق على رسالة النبي ﷺ فيما بلغ عن ربه، وأنه ما كتم شيئاً عن الله، فلو كان الرسول ﷺ يكتم شيئاً ـ وحاشاه ذلك ـ لكتم هذه الآيات.

٤- الآيات المباركات توضح فضل الله على زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم عليه الرسول ﷺ بالعتق من العبودية وقربه وأدناه وزوجه من ابنة عمته، وامتد هذا الحب إلى أسامة بن زيد الذي ولاه على الجند للثأر مما أصاب الصحابة في غزوة مؤتة، وكان فيهم خيرة الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

٥- على المسلم أن لا يخشى إلا الله، وأن يقدم الخوف من ربه على ما سواه، فإن ترك الحرام إنما يتركه لله لا من أجل الفضيحة أو السمعة أو غير ذلك.

٦- تقرير نعمة الله على أمة الإسلام وعلى العرب حيث أنقذهم من ظلمات الجهالة إلى نور التوحيد على بصيرة من الله، وأزاح عنهم العادات السيئة كشرب الخمر ووأد البنات وزواج الأختين، والتبني.

٧- نسخ الله التبني بقوله ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله أي أعدل فرفع الله حكم التبني ومنع من إطلاق لفظه وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه نسباً فيقال كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظرفه ضمه إلى نفسه وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب إليه فيقال فلان بن

فلان وقال النحاس هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبني وهو من نسخ السنة بالقرآن فأمر أن يدعو من دعوا إلى أبيه المعروف فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه فإن لم يكن له ولاء معروف قال له يا أخي يعني في الدين قال الله تعالى إنما المؤمنون إخوة[1].

٨- يترتب على التبني أضرار كثيرة منها ضياع الأنساب، وضياع الحقوق فقد يحرم المتبني أصحاب الحق الشرعي ويعطيه لغيرهم، وقد يترتب على المتبني مفاسد أخلاقية عظيمة فهو غريب بين محارم البيت فيطلع على عوراتهم وهو غريب عليهم.

٩- لا يحرم الإسلام على معتنقيه فعل الخير فلا مانع أن تتكفل بطفل يتيم أو مسكين تنفق عليه، وتعطيه تقرباً إلى الله وذخراً لك في الآخرة ولكن دون أن تنسبه إليك.

---

[1] - تفسير القرطبي ج١٤/ ١١٩

١٨- سبأ

قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:١٥-٢١].

معاني الكلمات:

آية: علامة دالة على قدرته تعالى.

عن يمين وشمال: عن يمين واديهم، وشماله.

واشكروا له: على ما رزقكم باستمراركم على عبادة الله وحده لا شريك له.

فأعرضوا: عن شكره وعن توحيده وكفروا.

سيل العرم: أي الماء الغزير، فأغرق جنتهم وابنيتهم ويبست الأشجار وتحطمت لما نضب عنها الماء.

أكل خمط: مر بشع.

وأثل وشيئ من سدر قليل: تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل.

بما كفروا: بسبب كفرهم.

وهل نجازي: نعاقب.

وجعلنا بينهم: بين سبأ، وهم باليمن.

وبين القرى التي باركنا فيها: بالماء والشجر، وهي قرى الشام التي يسيرون إليها بالتجارة.

قرى ظاهرة: متواصلة من اليمن إلى الشام.

وقدرنا فيها السير: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه.

آمنين: لا تخافون في ليل ولا نهار.

باعد بين أسفارنا: أي الشام: اجعلها براري ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء، فبطروا النعمة.

وظلموا أنفسهم: بالكفر.

أحاديث: للناس.

مزقناهم: فرقناهم في البلاد.

ولقد صدق عليهم إبليس ظنه: ولقد صدق الكفار ـ ومنهم سبأ ـ إبليس ظنه بإغوائه يتبعونه لكن المؤمنون لم يتبعوه.

سلطان: تسليط.

لنعلم: علم ظهور.

التفسير:

قال صاحب الدر المنثور ـ رحمه الله ـ:

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﷺ قال: كان أهل سبأ أعطوا ما لم يعطه أحد من أهل زمانهم فكانت المرأة تخرج على رأسها المكتل فتريد حاجتها فلا تبلغ مكانها الذي تريد حتى يمتليء مكتلها من أنواع الفاكهة فكذبوا رسلهم.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك ﷺ في الآية قال: كانت أودية اليمن تسيل إلى وادي سبأ وهو واد بين جبلين فعمد أهل سبأ فسدوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة وتركوا ما شاءوا لجناتهم فعاشوا بذلك زماناً من الدهر ثم إنهم عتوا وعملوا بالمعاصي فبعث الله على ذلك السد الجرذان[1] فنقبته عليهم فعرض الله مساكنهم وجناتهم وبدَّلهم بمكان جنتهم جنتي

---

١ - الجرذان: الفئران.

خمط والخمط الاراك و الاثل هو القصير من الشجر الذي يصنعون منه الأقداح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قول: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾: قال: الاراك، ﴿وَأَثْلٍ﴾: قال: الطرفاء.

وعن قتادة في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾: قال: قوم أعطاهم الله نعمة وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته قال الله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾: قال: ترك القوم أمر الله، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: ذكر لنا: ﴿الْعَرِمِ﴾: وادي سبأ كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتى فعمدوا فسدوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة وجعلوا عليه أبوابا وكانوا يأخذون من مائه ما احتاجوا إليه ويسدون عنهم ما لم يعبؤا به من مائه فلما تركوا أمر الله بعث الله عليهم جرذا فنقبه من أسفله فاتسع حتى أغرق الله به حروثهم وخرب به أراضيهم عقوبة بأعمالهم. قال الله: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[1].

قلت ومن عجائب خلق الله أن الفئران تحب العيش والتجمع بجوار الماء وخاصة أسفل الكباري والسدود ويحفرون حفراً لهم يعيشون فيها فينتشرون لنيل رزقهم ثم يأوون إليها للنوم والراحة.

وتذكر كتب التاريخ أن أهل الحيرة أصبحوا موالين للفرس، وأهل الغساسنة اصبحوا موالين للروم، وكلما نشب صراع بين الفرس والروم كان يدفع ثمنه أولاد العم من أهل الحيرة

١- الدر المنثور ج٦ من ص٦٨٧-٦٩٢.

والغساسنة، حتى جاء الإسلام ووحد الجميع تحت مظلة التوحيد.

الدروس المستفادة:

١- بالشكر تدوم النعم، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

٢- الكفر بالنعمة سبب في زوالها، والمنعم لا يرفع نعمة أنعمها على عبده حتى يكفر العبد ويجحد بنعمة المنعم، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الداء والدواء: «ومن عقوبات المعاصي أنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد إلا بذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب».

٣- أثر المعصية على الفرد والمجتمع فقد شتت أمة عظيمة كانت آمنة مطمئنة بسبب كفر النعمة، البلاء إذا نزل لا يرفع إلا بالدعاء.

٤- الماء جند من جنود الله به أغرق قوم نوح، وقوم فرعون ، فسبحان من سخر الأرض والسموات بقدرته.

٥- من يفعل المعاصي، ويظن أن الله غافلاً عنه فهو على خطر عظيم فالله يمهل ولا يهمل «وإن أخذه أليم شديد».

٦- من أعطى مالاً وولداً وعشيرة وأمناً، فقد حيزت له الدنيا فليحمد الله ولا يتكبر بأهله وماله على الفقراء والمساكين.

٧- الإنسان يظلم نفسه بكفره وجحوده وفعل المعاصي.

٨- على العاقل أن يعتبر مما جرى لهذه الأمة، وأن يجتنب أسباب هلاكها.

٩- الكثير من الناس لا يعرف قدر النعمة إلا بعد زوالها عنه لذا كان من دعاء الرسول ﷺ : **«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك»**. رواه مسلم.

١٩ - مؤمن سورة ياسين

قال تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:١٣-٢٧].

معاني الكلمات:

فعززنا: قوينا الاثنين.

تطيرنا: تشاءمنا.

بكم: أي: لم نر.

يسعى: يركض لما سمع تكذيب القوم للرسل.

فطرني: خلقني أي: لا مانع لي من عبادته.

إليه ترجعون: يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

من دونه: أي غيره.

آلهة: معبودات.

إني إذن: إن عبدت غير الله.

مبين: بين.

فاسمعون: اسمعوا قولي ، فقتلوه.

قيل أدخل الجنة: كان في حياته حريصاً على هداية قومه، ولما عاين ما عاين من كرامة الله تمنى هدايتهم.

التفسير:

قال صاحب ـ تفسير القرآن بالقرآن ـ:

الآيات الكريمات تفيد أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يضرب لقومه المثل بأصحاب الرس في إهلاكهم بسبب شركهم وتكذيبهم للرسل كما فعلت قريش في شركهم وتكذيبهم لك لعلهم يتفكرون ويعتبرون ويتعظون بذلك، بقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾: الرس

المعروفة أو قرية الأفلاج[١] وأهلها كانوا قبل إنزال التوراة وبعد نزولها شرع الجهاد في سبيل الله لكثرة اتباع الرسل وهذا القول هو الراجح أما إنطاكية فإن عيسى عليه السلام أرسل إليهم اثنين من الحواريين عند رفعه إلى السماء فدخلوا في الإسلام ولم يهلكوا: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: الثلاثة الذين أرسلهم الله تعالى إلى أهل القرية لدعوتهم إلى عبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه من الأصنام التي لا خير فيها في جلب نفع ولا دفع ضر[٢].

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾: بادروهما بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾: قويناهما بثالث لإقامة الحجة عليهم، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾: أي: الرسل لقومهم ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾: من ربكم لدعوتكم إلى ما فيه صلاحكم وهدايتكم ونهيكم عما فيه مضرتكم وهلاككم من الشرك والتكذيب ﴿فَقَالُواْ﴾: أي: كبار أهل القرية في الرد على رسلهم لجهلهم وعنادهم واستكبارهم ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: ليس لكم فضل علينا فكيف يوحى إليكم دوننا ولو كنتم رسلاً لكنتم من غير البشر من الملائكة ولو أرسل تعالى إليهم ملكاً من الملائكة وهم لا يرونه لطلبوا رسولاً من البشر.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾: وحي ورسالة وكتاب ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾: على الله وعلينا في دعوى الرسالة فكيف نؤمن بكم فأجابتهم الرسل بالرد عليهم ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾: ولو لكذبنا عليه لعاجلنا بالعقوبة والهلاك ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ

١- لما يأتي من قول سعيد بن جبير وهي الرس أو مدينة الأفلاج لما سبق من قول قتادة أن أصحاب الرس كانوا أهل فلج باليمامة في سورة الفرقان.

٢- واسم الرس صلدق وصدوق وشلوم.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾: أي: إبلاغ الرسالة وإقامة الحجة فإن قبلتم فآمنتم فهو حظكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة وإن كذبتم وعارضتم خبتم وخسرتم دنيا وأخرى.

فرد أهل القرية على الرسل بالتهديد بالرجم بالحجارة لما انقطعت حجتهم حيث ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: تشاءمنا منكم بانقطاع المطر عنا حين قدمتم علينا ﴿لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾: عن الدعوة والإرشاد ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾: بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: بالقتل والإهانة فردت عليهم الرسل ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: أي: شؤمكم معكم فما أصابكم من الجدب والقحط هو بسبب شرككم وتكذيبكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾: وعظتم وأمرتم بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه تطيرتم وتشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالعذاب ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: متجاوزون الحد في التكذيب والظلم والعدوان وبذلك أدت الرسل الدعوة والرسالة وقامت الحجة عليهم والحمد لله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾: قال: هو حبيب النجار رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وعن سعيد بن جبير قال: جاء حبيب وهو يكتم إيمانه ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: حتى بلغ ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾: قال: فرجموه بالحجارة فجعل يقول: «رب أهد قومي فإنهم لا يعلمون بما غفر لي ربي» رواه عبد الرزاق وابن جرير، وعن ابن مسعود أنه كان يقول وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره رواه ابن جرير[1] وعن مجاهد في قوله: ﴿قِيلَ

١- القصب: الأمعاء.

﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: قال: وجبت له الجنة ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾: هذا حين رأي الثواب رواه ابن جرير وابن أبي المنذر وابن أبي حاتم.

وعن عبد الملك بن عمير قال قال عروة بن مسعود الثقفي ﷺ للنبي ﷺ ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ إني أخاف أن يقتلوك فقال لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فقال رسول الله ﷺ إذن انطلق، فانطلق فمر على اللات والعزى فقال يا معشر ثقيف إن اللات لا لات وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله[1] فقتله فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هذا مثل صاحب يس: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾» رواه ابن أبي حاتم والبيهقي[2].

الدروس والعبر:

١- منطق أهل الباطل على مر تاريخ البشرية هو التهوين والتقليل من دعوة أئمة الهدى ومصابيح الدجى من الأنبياء والمرسلين وكذلك الدعاة المخلصون وحجتهم في ذلك ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [المؤمنون:٢٤]، وكأن بشرية الرسل عيبٌ فرد الله سبحانه وتعالى على أمثال هؤلاء المعاندين بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء:٩٥].

١- الأكحل: عرق في وسط الذراع.

٢- تفسير القرآن بالقرآن ص١٦٣-١٦٤.

٢- الخير كل الخير في اتباع منهج المرسلين فكل ما جاء من عند الله خير.

٣- على الداعية أن يتحلى بالصبر وتحمل مسئولية الدعوة وعدم الانهزام أمام المغرضين وأفعال المرجفين والمثبطين.

٤- على الداعية أن يقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم مهما كلفه ذلك من تعب ونصب في الحياة فإن الله لن يضيع أجره.

٥- على الداعية أن يدعو ويدع النتائج على الله المهم أن يخلص في دعوته ولا يرائي بعمله.

٦- هناك صنف من الناس لا يروق له أن يجد الناس تسمع لفلان من الناس فيجتهد هو للبحث عن عيوبه وحسده والحقد عليه.

٧- يقين الداعية إلى الله يصل به إلى الدرجات العلى عند ربه، فقد أكرم الله سبحانه وتعالى مؤمن آل ياسين بالمنزلة العليا في الجنة فقال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

٢٠- مؤمن آل فرعون

قال تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٢٦-٣٥].

معاني الكلمات:

ذروني: اتركوني.

وليدع ربه: فإني لا أبالي به، وهذا في غاية الجحد والعناد.

الفساد: التوحيد.

عذت: التجأت واستجرت.

من كل متكبر: عن الحق يرده، وعلى الخلق بإحتقارهم.

ولا يؤمن بيوم الحساب: أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد.

بالبينات: بالمعجزات.

فعليه كذبه: أي: ضرر كذبه.

الذي يعدكم: به من العذاب عاجلاً.

مسرف: مشرك.

كذاب: مفتر.

ظاهرين: غالبين.

الأرض: أرض مصر.

فمن ينصرنا من بأس الله: أي: لا أحد إن أرادنا بسوء.

سبيل الرشاد: طريق الحق والصدق والرشد وهو كاذب أيضاً.

تولون مدبرين: هاربين.

من الله: من عذابه.

عاصم: مانع.

مسرف: مكثر من المعاصي.

مرتاب: عنده شك في قلبه.

التفسير:

قال :ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون قال السدي كان ابن عم فرعون ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم.

وقال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠]» رواه ابن أبي حاتم، وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾: فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن

الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه من عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر ﷺ فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾» انفرد به البخاري من حديث الأوزاعي.

قال وتابعه محمد بن إسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه وبه قال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني حدثنا عبدة عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص ﷺ أنه سئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ قال: مر ﷺ بهم ذات يوم فقالوا له أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: أنا ذاك، فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه فرأيت أبا بكر ﷺ محتضنه من ورائه وهو يصيح بأعلى صوته وإن عينيه ليسيلان وهو يقول يا قوم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾. حتى فرغ من الآية كلها وهكذا رواه النسائي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ربي الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾: يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل[1].

١- زاد المسير ج٧ ص٢٠٥.

وقال: ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾: فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه وهكذا أخبر الله ﷻ عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧-٢١].

وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣]، أي: أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً.

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيننا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾: أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه

العريض فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾: أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾: أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، فقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧]، وقال جلت عظمته: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩]، وفي الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مئة عام» والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾: هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد ثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾: أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره.

ثم قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾: يعني: يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: أي: ذاهبين هاربين.

ولهذا قال ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: أي: لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه (ومن يضلل الله فما له من هاد) أي: من أضله الله فلا هادي له غيره.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: يعني: أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾: أي: يئستم فقلتم طامعين ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: أي: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه ثم قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾: أي: الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإن الله ﷻ يمقت على ذلك أشد المقت.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: والمؤمنون أيضا

يبغضون من تكون هذه صفته فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾: أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾، وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة وحكى عن الشعبي أنهما قالا لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين[1].

قال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها، فقد ظل فرعون في ضلاله، مصرّاً على التنكر للحق، ولكنه تظاهر بأنه أخذ في التحقيق من دعوى موسى، ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها فاتخذ لنفسه مهرباً، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾[غافر:٣٦-٣٧].

يا هامان ابن لي بناءً عالياً لعلي ابلغ به أسباب السماوات لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾: هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور كي لا يواجه الحق جهرة ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه.

وشتان بين دعوة ودعوة إن دعوته لهم واضحة مستقيمة إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار، يدعوهم إلى إله واحد تشهد أثاره في الوجود بوحدانيته وتنطق بدائع نعمه بقدرته وتقديره،

١- تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٨.

يدعوهم ليغفر لهم وهو القادر أن يغفر الذي تفضل بالغفران «العزيز الغفار» فإلى أي شيئ يدعونه يدعونه للكفر بالله عن طريق اشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام والغاز.

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم، بعد ما كان يكتم إيمانه فأعلن عنه هذا الإعلان، فلا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله، وقد قال كلمة وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون هذا في موقف لا ينفع فيه الذكرى، والأمر كله لله[1].

الدروس المستفادة والعبر:

١- الطغاة يخدعون شعوبهم بالترهيب والترغيب وإلا هل كانت عقول الشعب مغيبة عندما قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى فصدقوه.

٢- في نظر أهل الباطل ما يؤمنون به هو الحق وغيرهم على الباطل فهل يعقل أن دين موسى هو الباطل كما زعم فرعون.

٣- الفساد الأعظم في الأرض هو الكفر والشرك بالله ﷻ.

٤- يجوز المدارة عن الطغاة الذين يريدون فتنة العباد عن دين الله، فقد أباح النبي ﷺ لعمار ابن ياسر أن ينطق بالكفر باللسان مع ثبات القلب على الإيمان.

٥- أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما أخبر المعصوم ﷺ حين قال: «**سيد الشهداء حمزة، ثم رجل قام إلى سلطان جائز فقتله**»، أي: قتله ذلك السلطان الجائر.

١- الظلال (٥/ ٣٠٨٢/ ٢٠٨٣).

٦- الإمام الذي يغش أمته لا يشم رائحة الجنة قال رسول الله ﷺ: «**ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مئة عام**».

٧- أهمية الدعوة إلى الله والنصح لدين الله.

٨- على المسلم أن ينصح لله، وأن يقدم شيئاً لدين الله وأن يبتعد عن السلبية والانعزالية.

٩- أهميه تذكير الداعية من يدعوهم باليوم الآخر الترغيب والترهيب.

٢١- المجادلة

قال تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:١-٤].

معاني الكلمات:

تجادل: تراجع أيها النبي.

في زوجها: المظاهر منها، وكان قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، يعني أنت محرمة عليَّ كما هو محرم عليّ أن أرى ظهر أمي، وكان هذا موجبة فرقة مؤبدة بين الزوجين.

وتشتكي إلى الله: وحدتها وفقرها، وصبية صغار: إن ضمتهم إليه ضاعوا، أو إليها جاعوا.

تحاور كما: تراجعكما.

يظاهرون: يحرمون أزواجهم كما يحرم عليهم رؤية ظهور الأمهات، وتبعه كل ما حرم رؤيته أمه، وهو جميع الجسد إلا الرأس والعنق، وموضع القلادة من الصدر، واليدين إلى أنصاف العضدين، والقدمين إلى أنصاف الساقين.

وإنهم: بالظهار.

زوراً: كذباً.

وإن الله لعفو غفور: للمظاهر الكفارة.

ثم يعودون لما قالوا: أي: فيه بأن يخالفوه، بإمساك المرأة المظاهر منها، والذي هو خلاف مقصود الظاهر منها، من وصف المرأة بالتحريم.

فتحرير: فإعتاق.

يتماسا: بالجماع.

لم يجد: رقبة، أو لم يجد ثمنها.

فإطعام ستين مسكيناً: عليه، يطعم كل مسكين ملء اليدين مع مدهما من الطعام الوسط، الذي لا هو بأعلى الطعام ولا أدناه.

التفسير:

عن مَعْمَرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَنْظَلَةَ عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ وَاللهِ فِيَّ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ قَالَتْ كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ قَالَتْ فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ فَقَالَ أَنْتِ عَلَيَّ

كَظَهْرِ أُمِّي قَالَتْ ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي قَالَتْ فَقُلْتُ كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ قَالَتْ فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي قَالَتْ ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ قَالَتْ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ يَا خُوَيْلَةُ ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي اللهَ فِيهِ قَالَتْ فَوَاللهِ مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ فَتَغَشَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ لِي يَا خُوَيْلَةُ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ إِلَى قَوْلِهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً قَالَتْ فَقُلْتُ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ قَالَ فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَتْ فَقُلْتُ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ قَالَ فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ قَالَتْ قُلْتُ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا ذَاكَ عِنْدَهُ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ قَالَتْ فَقُلْتُ وَأَنَا يَا رَسُولَ اللهِ سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ قَالَ قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا قَالَتْ فَفَعَلْتُ.

رواه أحمد مسند القبائل رقم الحديث (٢٦٠٥٦)

الدروس المستفادة:

١- تبارك سمع الله الذي يسمع ويرى الذي يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تقول السيدة عائشة رضى الله عنها والله لقد كنت مع رسول الله ﷺ في حجرة واحدة وهي تراجعه ولم أسمع شيئاً فتبارك سمع الله، فأقبل على ربك بالدعاء

إنه سميع مجيب.

٢- حرص نساء الصحابة على السؤال عن أمور الدين وعدم الحرج فقد أثنى النبي ﷺ على نساء الأنصار لأنهن كن يسألن النبي ﷺ عن مسائل دقيقة جداً دون حياء منه كما قيل يضيع العلم بين الحياء والكبر.

٣- جاء الإسلام بشريعة أساسها التيسير على العباد ولم يكلفهم الله المشقة وخيرهم حسب ما يطيقون فعلى سبيل المثال في الصلاة من لم يقدر أن يصلى قائماً صلى قاعداً ومن لم يقدر صلى مضطجعاً ومن أشار بإصبعه ، وفي الصيام أباح للمريض القضاء أو الكفارة لصحاب الأعذار، وفي الظهار من لم يجد عتق رقبة صام شهرين متتابعين ومن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً، وهكذا في بقية العبادات ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، و ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق:٧].

٤- خطورة التسرع في جميع الأمور، وخاصة ألفاظ الطلاق، فقد كثر الحلف بالطلاق لأتفه الأسباب، وتجد في الأسواق يحلف أحدهم بالله العظيم والطلاق عشرات المرات، حتى أصبح الطلاق الآن برسائل الهاتف المحمول.

٥- على المرأة العاقلة إذا رأت زوجها مغضباً أن تترفق به ولا تعانده وتضطره إلى إيقاع الطلاق.

٦- يترتب على وقوع الطلاق مفاسد عديدة أبرزها التفكك الأسري وضياع الأولاد وعدم رعايتهم لذا من فقه السيدة خولة بنت ثعلبة أنها قالت: يا رسول الله إن لي منه أولاداً إن ضممتهم إليَّ جاعوا وتقصد بذلك أنها فقيرة، وإن ضممتهم إليه ضاعوا

وذلك قد يهملهم بسبب العمل وقد يتزوج امرأة غيرها وقد تسئ معاملتهم.

٧- يقول ـ صاحب أيسر التفاسر ـ لو جامع المظاهر قبل الكفارة أثم فليستغفر ربه وليخرج كفارته، و لاشيء عليه لحديث الترمذي الصحيح [١].

١- أيسر التفاسير المجلد٤ ص٤٢٧.

٢٢- أصحاب الجنة

قال تعالى:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم:١٧-٣٣].

معاني الكلمات:

بلوناهم: اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع.

الجنة: البستان.

ليصرمنها: يقطعون ثمرتها.

مصبحين: وقت الصباح.

فطاف عليها طائف من ربك: أي أصابتها آفة سماوية.

كالصريم: أي: الليل البهيم.

حرثكم: غلتكم.

صارمين: مريدين القطع.

وغدوا: يتحدثون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم.

حرد: أي منع الفقراء.

قادرين: عليه في ظنهم.

فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرمون: أي :كالليل الأسود قالوا قد أخطأنا الطريق، فتهنا عنه، ثم قالوا لا بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب.

أوسطهم: خيرهم وأعدلهم.

يسبحون: تسبحون الله تائبين.

يتلاومون: يلوم بعضهم بعضاً، على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين حقهم.

طاغين: أي: اعتدينا وبغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا.

الآية (٣٢): يعني ليقبل توبتنا، ويرد علينا خيراً من جنتنا.

العذاب: يعني لمن خالف أمرنا من كفار مكة وغيرهم.

التفسير:

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعثة محمد ﷺ إليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾: أي: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: وهي: البستان المشتمل على أنواع

الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾: أي: حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: أي: فيما حلفوا به ولهذا حنثهم الله في أيمانهم فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾: أي: أصابتها آفة سماوية ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما أي: كالليل الأسود وقال الثوري والسدي مثل الزرع إذا حصد أي هشيماً يبساً وقال ابن أبي حاتم ذكر عن أحمد بن الصباح أنبأنا بشر زاذان عن عمر بن صبيح عن ليث بن أبي سليم عن عبد الرحمن ابن سابط عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيء له**» ثم تلا رسول الله ﷺ: «﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ **قد حرموا خير جنتهم بذنبهم**»، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾: أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾: أي: تريدون الصرام قال مجاهد كان حرثهم عنباً ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾: أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾: أي: يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم قال الله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: أي: قوة وشدة وقال مجاهد ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: أي: جد وقال عكرمة على غيظ وقال الشعبي ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: على المساكين وقال السدي: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: أي: كان اسم قريتهم حرد فأبعد السدي في قوله هذا ﴿قَادِرِينَ﴾: أي: عليها فيما يزعمون ويرومون ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾: أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله ﷻ قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة

وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾: أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها قاله ابن عباس وغيره ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: أي: بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن كعب والربيع بن أنس والضحاك وقتادة أي أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، قال مجاهد والسدي وابن جريج ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تستثنون قال السدي وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً وقال ابن جرير: هو قول القائل إن شاء الله وقيل معناه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، أي: هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾: أي: يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾: أي: اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾: قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا وقيل احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة والله أعلم ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن قال سعيد بن جبير كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء وقيل كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل فلما مات وورثه بنوه قالوا لقد

كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾: أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما أتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات وبدل نعمة الله كفرا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل والحصاد بالليل[1].

الدروس المستفادة:

١- الابتلاء سنة قديمة يبتلى الله بها عباده ليمحصهم، والابتلاء يكون في الخير والشر قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

٢- وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

٣- الصدقة تزيد في المال ولا تنقصه قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢].

٤- وقال رسول الله ﷺ: «ما نقص مال من صدقة».

١- تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٧-٤٠٨.

٥- على العاقل أن يتلقى نعم الله ﷻ بالشكر وشكر النعمة إخراج حق الله فيها من دفع الزكاة والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين والإنفاق في أعمال الخير والبر من بناء مساجد أو مستشفيات أو دور للأيتام.

٦- شؤم البخل على أصحابه فعندما لا يخرج الإنسان حق الله في ماله فإنما يعرض نفسه لمحق البركة وزوال النعمة، وتعرض زرعه للآفات ففي الحديث: «**وما منع قوم زكاة أموالهم إلا أخذوا بالسنين**».

٧- أهمية وجود الناصح الأمين الذي يذكّر أهله وإخوانه بخطئهم وكيفية تصحيح هذا الخطأ فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابين.

٨- الاستغفار والندم والعزم على ترك الذنب من شروط التوبة الصادقة ودليل على الصدق مع الله ﷻ.

٩- منع المطر على العباد من شؤم معاصيهم وأفعالهم، وما نراه من تسلط الديدان على المحاصيل الزراعية إلا بذنوب العباد، فلو رجعوا إلى ربهم لصب الله عليهم الخير صباً.

١٠- أمهل الله سبحانه وتعالى عباده التوبة ولكن إذا بلغت الروح الحلقوم فلا تقبل التوبة ولا ينفع الندم، وهؤلاء الأخوة لم ينفعهم الندم لأنهم أضمروا الشر في نيتهم وأقدموا عليه.

١١- على الغني أن يعلم أنه ببخله لا يضر إلا نفسه فالله تكفل برزق العباد فالله لا ينسى أحداً واسمع لهذه القصة الذي ذكرها الشيخ ـ محمود المصري ـ نقلاً عن البدر الطالع للأمام الشوكاني:

في بلدة تسمى «الحمرة» وذلك أنه كان فيها رجل من «الزرعة» وكان ذا دين وصدق، واتفق على أنه بنى مسجداً يصلي فيه، وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسراج وبعشائه، فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء وإلا أكله وصلى صلاته، واستمر على ذلك الحال، ثم إنها اتفقت شدة ونضب ماء الآبار، وكان له بئر، فلما قل ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده، فخربت تلك البئر والرجل في أسفلها، فأيس منه أولاده ولم يحفروا، وقالوا: قد صار هذا قبره، وكان ذلك الرجل عند خراب البئر في كهف فيها، فوقعت إلى بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه، فأقام في ظلمة عظيمة، ثم أنه بعد ذلك جاءه السراج الذي كان يحمله إلى المسجد وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة وكان به يفرق بين الليل والنهار واستمر له ذلك مدة ست سنوات والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال، ثم إنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتها فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها، فوجدوا أباهم حياً فسألوه عن حاله، فقال لهم السراج والطعام الذي كنت أحمله إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمله تلك المدة، فعجبوا من ذلك، فصارت قضيته موعظة يتعظ بها الناس في أسواق البلدة[1].

قلت: الله قادر على كل شيء فلقد سمعنا عن زلزال باكستان ٢٠٠٦م، وسمعنا أنه تم استخراج امرأة عجوز بعد أربعين يوماً من تحت الأنقاض حية، فمن الذي هيأ لهم أسباب الحياة سوى العلي القدير.

١- القصص القرآني ـ محمود المصري ـ نقلا عن كتاب البدر الطالع للشوكاني ص ٣٧٨.

٢٣- أصحاب الأخدود

قال تعالى:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١-١٠].

معاني الكلمات:

أي: أقسم بالسماء ذات النجوم العظام.

أي: يوم القيامة.

شاهد ومشهود: يوم الجمعة ويوم عرفة.

قتل أصحاب الأخدود: أي: لعن أصحاب الحفرة في الأرض.

الأخدود: أي: الحفر التي تحفر في الأرض وهو مفرد وجمعه أخاديد.

إذ هم عليها قعود: أي على حافتها وشفيرها.

يفعلون بالمؤمنين: هو إلقائهم في النار لأن يرتدوا إلى الكفر.

الوقود: أي: ما توقد به.

وما نقموا منهم: أي ما عابوا أي شيء سوى إيمانهم بالله تعالى.

الحميد: المحمود على كل حال.

فتنوا: أي: حرقوا.

ثم لم يتوبوا: من كفرهم وفعلهم.

ولهم عذاب الحريق: وذلك الجزاء من جنس العمل.

التفسير:

يقول صاحب: تفسير القرآن بالقرآن والسنة والآثار:

الآيات الكريمات تفيد قسمه تبارك وتعالى بمظاهر ربوبيته المقرر لتوحيد الألوهية والعبادة بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾: الأثنى عشر، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، التي تسير الشمس في كل واحد منها شهراً[1].

وقال: ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

فبروج السماء هى منازلها أو منازل السيارة التي فيها من أعظم آياته سبحانه وتعالى

١- الستة الأولى من البروج على إحدى وثلاثين يوماً وخمسة وثلاثين يوماً والسادس على تسع وعشرين بخلاف الأشهر القمرية المعروفة.

فلهذا أقسم بها مع السماء ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأباه أن يترك سدى، ويخلقهم عبثاً، ثم أقسم بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدِرك والمدَرك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال والأفعال ذكرت على وجه التمثيل، لا وجه التخصيص[1].

أما قصة أصحاب الأخدود فقد وردت مفصلة في كتب السنة:

فعَنْ صُهَيْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ الساحر أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ

١- بدائع التفسير ـ الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية ـ المجلد الخامس ص١٦٩.

آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ

حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ[1].

الدروس المستفادة من القصة:

١- دينك يحتاج منك أن تضحي بكل غال ونفيس.

٢- الابتلاء سنة من سنن الله في الأرض قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣]، وأخبر الصادق المصدوق ﷺ أن من كان قبلكم كانوا ينشرون بمناشر من حديد فما يزحزحهم ذلك عن الإيمان.

٣- الشباب هو قلب الأمة النابض الذي إذا وجه توجيهاً صحيحاً أسهم في تقوية بنيان الأمة ورفعتها ونهضتها فهذا الشاب قدم نفسه في سبيل الله لتحيى أمته على الدين الصحيح، والذين نصروا دعوة محمد ﷺ كانوا من الشباب، وأصحاب الكهف كانوا شباباً.

٤- أهمية الدعاء في رفع البلاء وكشف الغمة.

٥- في وقت الخوف والشدة عليك بالدعاء الوارد في الحديث: «**اللهم اكفينهم بما شئت وكيف شئت إنك على كل شيء قدير**»، وهذا دعاء مجرب، من قال به كفاه الله شر

١- رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق ـ باب قصة أصحاب الأخدود رقم الحديث ٥٣٢٧.

أعدائه ومن الأدعية المأثورة في ذلك:

- «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم».
- «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق».
- «اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم».

٦- أم الأطفال التي ثبتت على الدين وألقت بصغارها مثال للأم الصابرة المحتسبة وهي مثال لأمهات الشهداء والمعذبين والمستضعفين الذين يدينون دين الحق.

٧- الثبات على المبدأ سبيل الصالحين في كل زمان ومكان.

٨- قدرة الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه وهلاكه لأعدائه.

٢٤- أصحاب الفيل

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[الفيل:١-٥].

معاني الكلمات:

ألم يجعل كيدهم في تضليل: قد جعل الله سبحانه وتعالى مكرهم وحيلتهم في هدم الكعبة في خسارة الكعبة خسارة وهلاك.

في تضليل: أي في خسارة وهلاك.

وأرسل عليهم طيراً أبابيل: جماعات جماعات.

ترميهم بحجارة من سجيل: ترميهم بحجارة من طين مطبوخ.

فجعلهم كعصف مأكول: فجعلهم كورق زرع أكلته الدواب، وداسته، وافنته.

التفسير:

قال: ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ألم تخبر قاله الفراء.

والثاني: ألم تعلم قاله الزجاج ومعنى الكلام معنى التعجب وأصحاب الفيل هم الذين قصدوا تخريب الكعبة.

وفي سبب قصدهم لذلك قولان :

أحدهما: أن أبرهة بنى بيعة قال: لست منتهياً حتى أضيف إليها حج العرب فسمع بذلك رجل من بني كنانة فخرج فدخلها ليلا فأحدث فيها فبلغ ذلك أبرهة فحلف ليسيرن الى الكعبة فيهدمها قاله ابن عباس.

والثاني: أن قوماً من قريش خرجوا في تجارة الى أرض النجاشي فنزلوا في جنب بيعة فأوقدوا ناراً وشووا لحماً فلما رحلوا هبت الريح فاضطرم المكان ناراً فغضب النجاشي لأجل البيعة فقال له كبراء أصحابه منهم حجر بن شراحيل وأبو يكسوم لا تحزن فنحن نهدم الكعبة قاله مقاتل وقال ابن إسحاق ابو يكسوم اسمه أبرهة بن الأشرم وقيل وزيره وواحد من قواده.

ذكر أهل التفسير أن أبرهة لما سار بجنوده إلى الكعبة ليهدمها خرج معه بالفيل فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نِعَم الناس فأصابوا إبلاً لعبد المطلب وبعث بعض جنوده فقال: سل عن شريف مكة وأخبره أني لم آت لقتال وإنما جئت لأهدم هذا البيت فانطلق حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه إنما جاء لهدم هذا البيت ثم ينصرف عنكم فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال وما لنا به يد إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن

يمنعه فهو بيته وحرمه وإن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة قال فانطلق معي الى الملك فلما دخل عبد المطلب على أبرهة أعظمه وكرمه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك إلى الملك فقال له الترجمان فقال حاجتي أن يرد علي مائتي بعير أصابها فقال أبرهة لترجمانه قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ولقد زهدت الآن فيك جئت إلى بيت هو دينك لأهدمه فلم تكلمني فيه وكلمتني لإبل أصبتها فقال عبد المطلب أنا رب هذه الإبل ولهذا البيت رب سيمنعه فأمر بإبله فردت عليه فخرج فأخبر قريشاً وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ورؤوس الجبال خوفاً من معرة الجيش إذا دخل ففعلوا فأتى عبد المطلب الكعبة فأخذ بحلقه الباب وجعل يقول :

يـــا رب لا أرجـــو لهـــم ســـواكا ... يـــا رب فـــامنع مـــنهم حماكـــا

إن عـــدو البيـــت مـــن عاداكـــا ... إمـــنعهم أن يخربـــوا قراكـــا

ثم إن أبرهة أصبح متهيئاً للدخول فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه فأبى فوجهوه الى اليمن راجعاً فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك وإلى المشرق ففعل مثل ذلك فوجهوه إلى الحرم فأبى فأرسل الله طيراً، وكان مع كل طير ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره، فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك وكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وقيل كان على كل حجر اسم الذي وقع عليه ولم يدخلوا الحرم وبعث الله على أبرهة داء في جسده فتساقطت أنامله وانصدع صدره قطعتين عن قلبه فهلك ورأى أهل مكة الطير وقد أقبلت من ناحية البحر فقال عبد المطلب إن هذه الطير غريبة ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس ينظر الى القوم فرجع يركض ويقول هلك القوم جميعا فخرج عبد المطلب وأصحابه فغنموا أموالهم وقيل لم ينج من القوم

إلا أبو يكسوم فسار وطائر يطير من فوقه ولا يشعر به حتى دخل على النجاشي فأخبره بما أصاب القوم فلما أتم كلامه رماه الطائر فمات فأرى الله تعالى النجاشي كيف كان هلاك أصحابه، واختلفوا كم كان بين مولد رسول الله ﷺ وبين هذه القصة على ثلاثة أقوال أحدها أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل وهو الأصح[1].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

فلم يزل البنيان الذي بناه أبرهة الحبشي في اليمن إلى أيام السفاح أول خلفاء بني العباس، فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن، فبعث إليه من خربه حجراً حجراً، وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل[2].

قال ـ صاحب تفسير القرآن بالقرآن ـ:

السورة الكريمة تفيد منته وفضله تعالى على أهل مكة في هروب وهلاك عدوهم أبرهة وجنوده الذي أراد الانتقام منهم بهدم الكعبة وصد الناس عن الحج المشروع إلى حج كنيسته باليمن التي لطخها أحد أبطال العرب بعذره الآدمي لإهانتها وأهلها وتحويل تجارة العرب من مكة إلى اليمن فخيب الله مسعاه ورد كيده في نحره بجند صغير من جنده وهذه العقوبة له ولجيشه ليست من أجل مكة فهم لا يستحقون ذلك لشركهم ومحادتهم لله تعالى في حرمه وفي بيته بعبادة الأصنام ومخالفتهم لملة إبراهيم عليه السلام الذي ينتسبون إليه، وإنما هو من أجل بيته

١- زاد المسير ج٩ ص٢٣٤.

٢- البداية والنهاية ـ المجلد الأول، ص٣٤٠.

وحرمه وتوطئة لبعثة رسوله محمد ﷺ الذي ولد في عام الفيل ولعلهم يتوبون من شركهم وضلالهم إلى عبادة الله وحده[١].

الدروس المستفادة من القصة:

١- أظلم الناس الذي يفكر أن يمنع كلمة التوحيد أن ترتفع في الأرض قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

٢- حرمة الكعبة المشرفة ، فقد شرفها الله ﷻ فهي أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله الواحد القهار.

٣- للبيت رب يحميه، فمن أراده بسوء قصمه الله.

٤- من تعظيم الله تعالى للكعبة أن جعلها قبلة للمسلمين وجعل ثواب الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف فيما سواه.

٥- أكثر أهل السير يتفقون أن النبي ﷺ ولد في عام الفيل، وفي ذلك إيذاناً من الله ﷻ أن هذا المولود سيحمل نور التوحيد وأن أمته ستزود عن حياض المسجد الحرام إلى قيام الساعة.

١- تفسير القرآن بالقرآن ـ الجزء السادس ـ ص٤٦٩.

٦- الطير من جنود الله في الأرض مثله كالماء والرياح، فبه أهلك الله ﷻ أبرهة الحبشي وجنوده.

٧- يا من رزقت مالاً وصحة وأمناً نصيحتي إليك أن تبادر بزيارة البيت العتيق الذي جعله الله ﷻ مثابة للناس وأمناً.

أهم المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير القرآن الكريم، إسماعيل بن عمرو بن كثير - بيروت - لبنان - دار الفكر - ١٤٠١هـ.

٣- تفسير الدر المنثور، جلال الدين السيوطي - بيروت - لبنان - دار الفكر - ١٣٩٣هـ.

٤- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي - القاهرة - دار الشعب - ١٣٧٢هـ - الطبعة الثانية.

٥- تفسير زاد المسير، عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي - بيروت - المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية - ١٤٠٤هـ.

٦- تفسير فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني - بيروت - دار الفكر - الطبعة الأولى.

٧- تفسير الجلالين، محمد بن أحمد، وعبد الرحمن بن أبي بكر المحلي - القاهرة - دار الحديث.

٨- التفسير الوجيز على هامش الكتاب العزيز، «المقتبس من تفسير ابن كثير ومصادر أخرى»، علي مصطفى خلوف - مؤسسة الجريسي للتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية.

٩- تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي - الطبعة الأولى - ١٤٢٦هـ - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية.

١٠- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبي بكر الجزائري ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م ـ رواسن للدعاية ـ جدة ـ المملكة العربية السعودية.

١١- في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ـ دار الشروق ـ الطبعة الشرعية الثانية عشر ـ ١٩٨٦م=١٤٠٦هـ.

١٢- مختصر تفسير ابن كثير، هاني الحاج.

١٣- تفسير القرآن بالقرآن والسنة والآثار وبالأسلوب الحديث، أحمد بن عبد الرحمن القاسم ـ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ=٢٠٠١هـ، الرياض ـ المملكة العربية السعودية.

١٤- بدائع التفسير: الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية، جمع وتحقيق: يسري السيد محمد ـ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ=١٩٩٣م ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ـ المملكة العربية السعودية.

كتب الأحاديث:

١- صحيح البخاري.

٢- صحيح مسلم.

٣- مسند أحمد.

٤- صحيح الترمذي.

٥- سنن النسائي.

مراجع أخرى:

١- البداية والنهاية، لإبن كثير ـ المجلد الأول ـ دار ابن خزيمة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

٢- الدخيل في التفسير، الجزء الأول ـ د. أحمد الشحات أحمد موسى ـ جامعة الأزهر فرع أسيوط ـ ٢٠٠٦م.

٣- قصص القرآن، محمود المصري ـ دار التقوى ـ دار التقوى ـ القاهرة ـ ج. م. ع.

٤- من قصص القرآن، محمد بيومي ـ مكتبة الإيمان ـ المنصورة ـ ج. م. ع. ٢٠٠٤م.

٥- الزهد، أحمد بن حنبل ـ دار الدعوة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٧هـ.

٦- شؤم المعصية وأثرها في حياة الأمة: من الكتاب والسنة، عبد الله بن محمد السدحان.

الفهرس

بين يدي القصص القرآني ٥

١- بقرة بني إسرائيل ١٢

معاني الكلمات ١٢

أصل القصة ١٣

التفسير ١٣

رواية أخرى للقصة ١٥

قال الشوكاني - رحمه الله - ١٥

الدروس المستفادة من القصة ١٦

٢- هاروت وماروت ١٩

معاني الكلمات ١٩

التفسير ٢٠

الدروس المستفادة من القصة ٢٤

٣- حزقيل ٢٦

معاني الكلمات ٢٦

التفسير ٢٦

الدروس المستفادة ٢٩

٤- طالوت وجالوت ٣١

معاني الكلمات ٣٢

التفسير ٣٤

الدروس المستفادة ٣٨

٥- قصة العزير ٤٢

معاني الكلمات ٤٢
التفسير ٤٣
علاقة الآية الكريمة بما قبلها من الآيات: ٤٣
التفسير ٤٣
العبرة من القصة ٤٥

٦- قصة قابيل وهابيل ٤٧

معاني الكلمات ٤٧
التفسير ٤٨
رد شبهة لا دليل على صحتها ٤٩
الدروس المستفادة من القصة ٥٠

٧- أصحاب السبت ٥٤

معاني الكلمات ٥٤
التفسير ٥٦
العبر والدروس المستفادة من القصة ٥٩
١- البيوع المشتملة على الجهالة والغرر ٦٢
٢- البيوع المشتملة على الخديعة والتدليس ٦٣
٣- البيوع المنهي عنها بسبب الربا ومنها ٦٣
٤- البيوع التي يترتب عليها معصية ٦٣
٥- تلقي الركبان ٦٤
٦- البيع المنهي عنه بسبب حرمة الوقت ٦٤
٧- البيع المنهي عنه بسبب نجاسة المبيع أو تحريمه ٦٤

٨- بلعام بن باعوراء ٦٦

معاني الكلمات ٦٦
التفسير ٦٧

العبر والدروس المستفادة من القصة ٦٩

٩- الثلاثة الذين خلفوا ٧٢

معاني الكلمات ٧٢

التفسير ٧٢

الدروس المستفادة ٨١

١٠- أصحاب الكهف ٨٥

معاني الكلمات ٨٦

التفسير ٨٩

سبب نزول سورة الكهف ٨٩

من هم أصحاب الكهف ٩٠

الدروس والعبر من القصة ٩٣

١١- الفقير الشاكر والغني الفاجر ٩٧

صاحب الجنتين ٩٧

معاني الكلمات ٩٧

التفسير ١٠٠

الدروس والعبر من القصة ١٠٣

١٢- موسى والخضر ١٠٦

معاني الكلمات ١٠٧

التفسير ١١٠

ما سبب خروج موسى عليه السلام في هذا السفر ١١٠

كيف فسر الخضر لموسى عليه السلام هذه المشاهد ١١٢

هل كان الخضر نبياً أو ولياً ؟ ١١٤

وقد اختلف العلماء هل الخضر باق إلى الآن أم مات ١١٥

الدروس المستفادة من القصة ١١٦

١٣- قصة ذي القرنين ١١٨
معاني الكلمات ١١٨
التفسير ١٢١
لماذا لقب بهذا الاسم وهل ذي القرنين هو الاسكندر الأكبر؟ ١٢١
الدروس المستفادة ١٢٦
١٤- قصة الإفك ١٢٩
معاني الكلمات ١٢٩
التفسير ١٣١
الدروس المستفادة ١٤٠
١٥- قارون ١٤٤
معاني الكلمات ١٤٤
التفسير ١٤٧
الدروس المستفادة ١٥٢
١٦- لقمان الحكيم ١٥٤
معاني الكلمات ١٥٤
التفسير ١٥٦
الدروس والعبر ١٦٠
١٧- قصة زيد بن حارثة وتحريم التبني ١٦٣
معاني الكلمات ١٦٣
التفسير ١٦٤
قصة وقوع زيد بن حارثة في الرق ١٦٥
حب النبي ﷺ لزيد وقصة زواجه من السيدة زينب ١٦٦
ما هو الشيء الذي أخفاه رسول الله ﷺ ١٦٧
الدروس المستفادة ١٧٠

١٨- سبأ ١٧٣

معاني الكلمات ١٧٣

التفسير ١٧٥

الدروس المستفادة ١٧٧

١٩ - مؤمن سورة ياسين ١٧٩

معاني الكلمات ١٧٩

التفسير ١٨٠

الدروس والعبر ١٨٣

٢٠- مؤمن آل فرعون ١٨٥

معاني الكلمات ١٨٦

التفسير ١٨٧

الدروس المستفادة والعبر ١٩٣

٢١- المجادلة ١٩٥

معاني الكلمات ١٩٥

التفسير ١٩٦

الدروس المستفادة ١٩٧

٢٢- أصحاب الجنة ٢٠٠

معاني الكلمات ٢٠٠

التفسير ٢٠١

الدروس المستفادة ٢٠٤

٢٣- أصحاب الأخدود ٢٠٧

معاني الكلمات ٢٠٧

التفسير ٢٠٨

الدروس المستفادة من القصة ٢١١

٢٤- أصحاب الفيل ٢١٣

معاني الكلمات ٢١٣

التفسير ٢١٣

الدروس المستفادة من القصة ٢١٧

أهم المراجع ٢١٩

كتب الأحاديث ٢٢٠

مراجع أخرى ٢٢١

الفهرس ٢٢٢